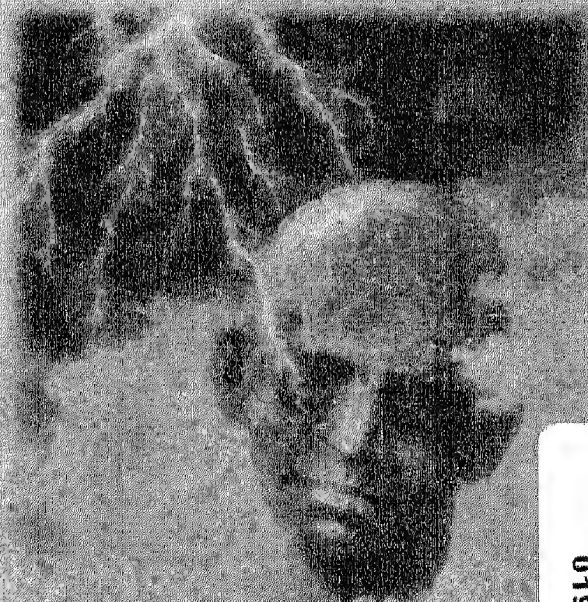


ك. غ. بوقح
ريتشارد ويليام

القوى الروحية و

علم النفس التحليلي



Bibliotheca Alexandrina

ترجمة : نهاد خياطة

القوى الروحية وعلم النفس التحليلي

- القوى الروحية وعلم النفس التحليلي
- تأليف : ريتشارد ويلهلم - ك.غ. يونغ
- ترجمة : نهاد خياطة
- جميع الحقوق محفوظة
- الطبعة الثانية 2000
- الناشر : دار الحوار للنشر والتوزيع
- سورية - اللاذقية - ص.ب 1018

القوى الروحية وعلم النفس التحليلي

تأليف

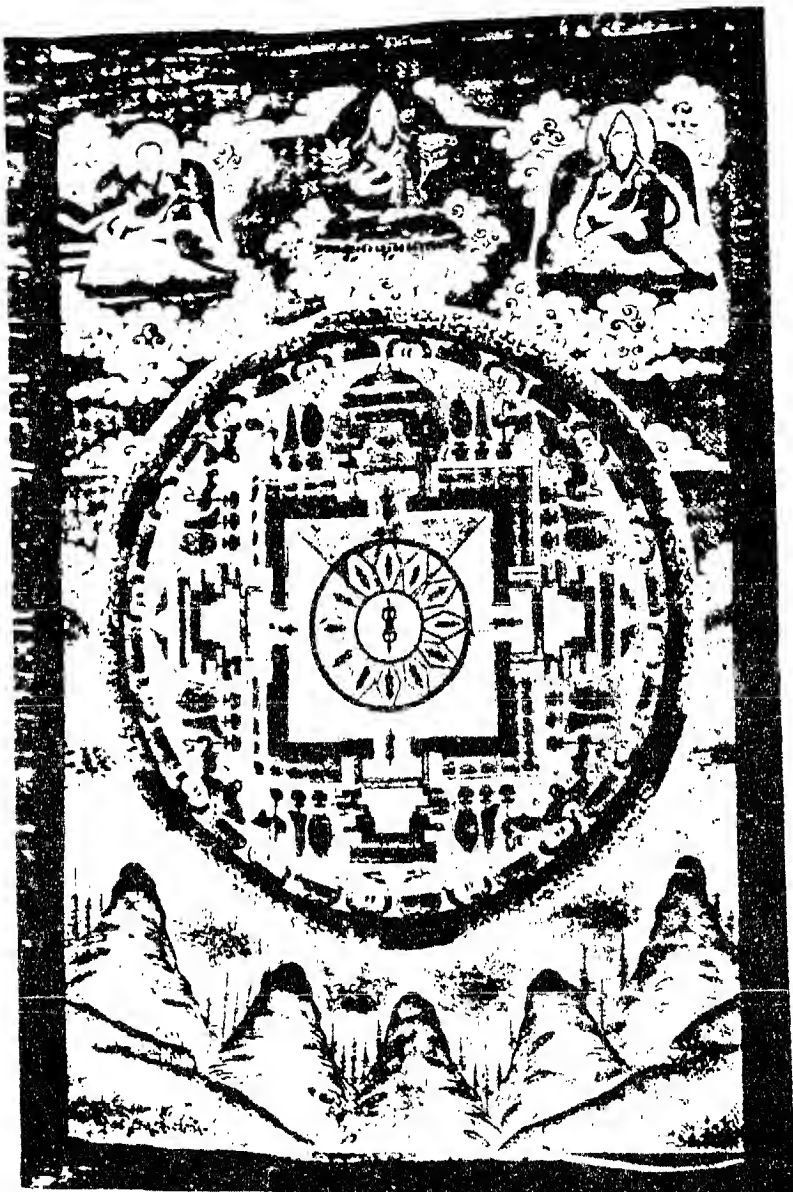
ريتشارد ويلهم

ك.ع. يونغ

ترجمة

نهاد خياطة

دار الحوار



مقدمة الطبعة الإنكليزية

ظهرت الطبعة الأصلية الألمانية من «سر الزهرة الذهبية» لأول مرة في خريف عام ١٩٢٩ ، وتشكل الترجمة التالية لها الترجمة الإنكليزية المأذونة . في الأول من آذار من عام ١٩٣٠ ، توفي ريتشارد ويلهلم . وفي أيار من نفس العام أقيم له حفل تذكاري في ميونيخ دُعي اليه يونغ لالقاء الخطاب الرئيسي . وقد أُعطي هذا الخطاب المكان المناسب له في الطبعة الإنكليزية ، التي نشرت بعد عام أو أكثر من وفاة ويلهلم . لقي الخطاب ترحيباً ، لا لأنه عرّف القارئ بويلهلم وحسب ، وإنما لأنه ألقى مزيداً من الضوء على القاعدة التي ينطلق منها الشرق في فهمه للعالم والحياة .

تتصف علاقة الغرب بالفكر الشرقي بالتناقض والالتباس . فالشرق ، من ناحية ، كما بين ذلك يونغ ، يتسلل إلينا من الباب الخلفي من خافيتنا ، ويؤثر فينا تأثيراً شديداً في اشكال منحرفة ، ومن ناحية ثانية ، نقوم نحن بطرده عنا بهابق حكم عنيف من حيث إنه معني بغلالة رقيقة من الميتافيزيقيا التي تسمم عقليتنا العلمية .

وإذا ارتاب امرؤ في المدى الذي يؤثره الشرق فينا في الخفاء ، فما عليه الا ان يلقي نظرة سريعة على الميادين التي يغطيها اليوم ما ندعوه بـ «الأفكار الخفية» Occult

ان الاطلاع الجزئي على ما يجري في هذا الاتجاه ، اضافة الى جهل الغربي الفطري لعالم الخبرة الداخلية وارتيابه فيها ، هو ما يشيد سابق الحكم على حقيقة الحكم الشرقية . عندما تطرح الحكمة الصينية على الغربي ، من المحتمل جداً أن يتساءل في ارتياب يتبدى في رفع حاجبيه : لماذا لم تنفذ هذه الحكمة العميقة الصين من الأحوال التي تعاني منها في الوقت الحاضر ؟ طبعاً ، هو لا يتوقف ويفكر بأن الصيني يتساءل أيضاً في ارتياب : لماذا لم تنفذ الغرب معرفته العلمية التي طالما تبجح بها ، ناهيك عن الأخلاقيات المسيحية التي طالما تبجح بها أيضاً . من حرب كالحرب العالمية ؟ لكن الحقيقة هي ان الأحوال الراهنة في الصين لا تبطل قيمة الحكمة الصينية ، ولا الحرب العظمى تثبت عقم العلم . في كلا الحالين نحن نتعامل مع الجوانب السلبية من المبادئ التي يسير عليها الشرق والغرب ، ولم يتهدأ بعد لا للأفراد ولا للأمم القدرة على اجتناب عيوب ما لديهم من فضائل . التحكم بالعالم الداخلي ، مصحوباً بازدياد يناسبه للعالم الخارجي ، لا بد وأن يؤدي الى كوارث عظمى . والتحكم بالعالم الخارجي ، مع استبعاد للعالم الداخلي ، يُسلمنا الى القوى الشيطانية الكامنة في هذا الأخير ، ويحيلنا الى همع بالرغم من اشكال الثقافة الظاهرية . الحل لا يمكن أن تجده في الهزء من الروحانية الشرقية ونعمتها بالعجز ، أو بسحب الثقة من العلم ووصفه بدمر البشرية . يجب على الروح أن يتكىء على العلم بما هو دليل له في عالم الواقع ، ويجب على العلم أن يلتفت الى الروح من أجل معنى الحياة .

تلك هي وجهة النظر التي اعتمدناها في هذا الكتاب . فمن تضافر جهود ويلهلم ويونغ صار لدينا لأول مرة طريقة لفهم وتذوق الحكمة الشرقية ترضي جميع الجوانب من عقولنا . لقد انتزعناها من ميدان الميتافيزيقيا ووضعناها في نطاق الخبرة

السيكولوجية ؛ وصرنا نتعامل معها بأداة جديدة كل الجدة ، في مأمن من التشوهات التي تعرّض لها الشرق على أيدي تجار المذاهب والنحل في الغرب . وفي نفس الوقت ، نغمقُ لدينا معناها ، عندما نعلم أننا ، بالرغم من الفجوة الكبيرة التي تفصلنا عن الشرق ، نسير تماماً على دروب مماثلة حين نغير عالمنا الداخلي انتباهنا .

لكن هذا الكتاب لا يعطينا مقارنة جديدة للشرق وحسب ، وإنما يدعم أيضاً وجهة النظر التي تتطور في الغرب فيما يتعلق بالنفس . فصياغة جديدة للقيم الشائعة اليوم تُخرج الإنسان الحديث من عالم طفولة تقاليد الجماعة الى عالم رجولة الاختيار الفردي ؛ إذ يعلم أن اختياره وقدره باتا يتوقفان الآن على فهمه لنفسه . لقد تعلم ، في السنين الأخيرة ، الشيء الكثير عن العناصر القائمة في نفسه ، وظلّت الى اليوم لا يخافه ارتياب فيها ، لكن التوكيد كان في الأغلب منصّباً على الجانب السكوني وحده حتى لقد ألقى نفسه لا يمتلك أكثر من قائمة بالمحتويات ، ذات طبيعة أثقلت كاهله تعباً أكثر مما حفزته . على التحكم بالمشكلات التي تواجهه . ومع ذلك أن ما يستولي على نخيلة الإنسان الحديث أكثر من كل شيء آخر هو حاجته الى فهم نفسه من خلال التغير والتجدد . بعد أن شاهد الإنسان الحديث عالم المادة يختفي من أمام بصرته العلمية ، ثم يعود لكي يظهر ثانية في صورة عالم من الطاقة ، راح يطرح على نفسه سؤالاً جريئاً : ألا ينطوي هو في نفسه على ذخيرة من القوى الدفينة التي ، ان فهمها صحيحاً، تمّده برؤية جديدة، وتعيّنه على ضمان المستقبل له؟ في هذا الكتاب يأتيه الجواب من مصدرين بينها فرق شاسع : اليوغا الصينية وعلم النفس التحليلي . ان «سر الزهرة الذهبية» ، منتزعا من إطاره القديم ، هو سر قوى النمو الكامنة في النفس ، وهذه القوى نفسها على نحو ما تتكشف فيه لعقول الغربيين تشكل أيضاً موضوع الشرح الذي تولاه يونغ . في هذا الشرح يبيّن لنا يونغ عمق التطور السيكولوجي العميق الذي ينتج عن العلاقة الصحيحة بالقوى الموجودة في النفس .

* * *

في الطبعة الألمانية يأتي شرح يونغ أولاً ، يليه تعريف ويلهلم للنص الصيني ، ثم يلي ذلك النص نفسه . بناء على طلب يونغ ، تغير هذا الترتيب بحيث يأتي الشرح بعد النص .

الكلمات الصينية الواردة في هذه الطبعة هي في صيغتها الإنكليزية ، أنا مدين للسيد آرثر وأيلي وللعقيد ف . سي . سي ايكرتون من أجل القيام بأعمال النسخ الضرورية . وقد تفضل هذا الأخير بإبداء انتباهه الشخصي الى كتابة مخطوطتي .

بغية مساعدة القارئ على أن يثبت في ذهنه الصلة بين مختلف المفاهيم الصينية من مثل : هينغ - مينغ - كواي - شين ، الخ ، اضفت ملحقين أحدهما مكتوباً والآخر مرسوماً .

من حسن حظي انني قمت بهذه الترجمة تحت اشراف الدكتور يونغ ، والى هذه الواقعة ، وإلى مزيد العون الذي تلقيته من السيدة يونغ ، انا مدين بالنجاح الذي قد أصبته في مواجهة ما اعترضني من صعاب .

كذلك كان لي امتياز قيام الدكتورة ايرلا رودا كيفتش بقراءة المخطوط ونقله ، وأنا شديد الامتنان لمساعدتها التي لا تقدر بثمن .

زوريخ ،

آذار ، ١٩٣١

كاري . ف . باينز



ملاحظة المترجم على الطبعة الجديدة المنقحة

انقضى ثلاثون عاماً على ظهور الطبعة الانكليزية الأولى من «سر الزهرة الذهبية». وفي غضون ذلك نشبت حرب عالمية ثانية ، وتلوح حرب عالمية ثالثة احتمالاً قائماً . والإنسان ما برح ينفق طاقته على العالم الخارجي لا يعوقه في ذلك عائق . وسط هذا التوجه الى الخارج ، (الموقف الانبساطي) ، تنحسر قارة الروح عن الأفق . تُراها ، أما تزال موجودة ؟ ان الطبعة الجديدة من هذا الكتاب تحمل الجواب بالإثبات . فهي تذكرنا بأن الانسان فعلاً ما فقد قط رؤيته لقارة الروح ، وأن غزو الفضاء الداخلي ، أعني فهمه لنفسه ، لسوف يظل الهدف النهائي للإنسان ، ك . غ . يونغ ، الذي تحض نفسه كلياً لهذا الهدف ، مات في عام ١٩٦١ . وقراء هذه الطبعة الجديدة سوف يرون فيها إحياء لذكراه بوصفه ثاني اثنين اشتركا في هذا الكتاب .

* * *

اضيفت الى الطبعة الألمانية الخامسة من «سر الزهرة الذهبية» عدة صفحات من نص صيني آخر في اليوغا له صلة وثيقة بنص «الزهرة الذهبية» . هذا النص هو ال «هوي مينغ تشنغ» ، أو «كتاب الوعي والحياة» . وتظهر هذه المادة الجديدة

بالإنكليزية لأول مرة ، ومعها مذكرة تمهيدية بقلم سالومي ويلهلم تتضمن رأياً موجزاً ، لكن هاماً ، ابداه زوجها في ال «هوي مينغ تشنغ» . كذلك تظهر لأول مرة بالإنكليزية مادة جديدة أخرى هي مقدمة يونغ على الطبعة الألمانية الثانية .

وقد أحدث التنقيح بعض التغييرات الجذرية على المصطلحات في هذه الطبعة ، بناء على نصيحة هلموت ويلهلم ، أبدلنا ترجمة كلمة «هينغ» من «الجوهر» (Wesen) ، الى جوهر الطبيعة البشرية ، أو «الطبيعة البشرية» ، اختصاراً ، أن «هينغ» ، التي غالباً ما تتناسق مع «مينغ» (الحياة) ، هي كهذه الأخيرة ، مبدأ كوني . طبعاً ، ان القارئ الغربي ليرى ان يفكر في الطبيعة البشرية من خلال هذه المفاهيم ، لكن الفكرة أساسية في الفلسفة الصينية . وهناك مبدأ عالمي ثالث هو «هوي» (hui) ، له أهمية في الطبعة الجديدة بسبب ال «هوي مينغ تشنغ» . ان «هوي» ، الوعي متعلق بـ «هينغ» ، الطبيعة البشرية ، لكنه غير متحد بها . ان بينهما حلقة مشتركة هي انها كليهما ضدان لـ «مينغ» ، الحياة ، لكنها مفهومان منفصلان في الفكر الصيني .

كذلك أدخلنا تغييراً هاماً على الترجمة ، أيضاً بناء على طلب هلموت ويلهلم ، اذ استبدلنا «الطاقة» (energy) بـ «القوة» (force) ومثاله «انكفاء الطاقة الى الخلف» .

لقد جرى تنقيح الترجمة وتدقيقها بعناية فائقة تلافياً لأخطاء محتملة . هذا وإن معاونة هلموت ويلهلم على تنقيح الجزء من الكتاب الذي كتبه والده قد أدت الى إدخال تحسينات كثيرة الى جانب ما تقدم ذكره . كذلك أنا مدين له بعدد من الهوامش التي بادأني بها والإبانات الخاصة بالعلاقة ما بين هينغ ، مينغ ، هوي .

ابتي ، اكرعيننا دي انكولو ، قدّمت لي مساعدة لم يكن لي غنى عنها فيما يتعلق بتنقيح الكتاب على وجه الإجمال .

موريس ، كنكتكوت

١٩٦١

كاري ف . باينز

مقدمة الطبعة الألمانية الثانية

بعث إلي صديقي الراحل ، ريتشارد ويلهلم ، الذي اشترك معي في تأليف هذا الكتاب ، بنص «سر الزهرة الذهبية» في وقت كان بالنسبة الى عملي الخاص وقتاً دقيقاً للغاية . فقد كنت منصرفاً الى البحث في سياقات الخافية الجامعة منذ العام ١٩١٣ ، ووصلت الى نتائج بدت لي موضعاً للتساؤل في أكثر من ناحية . كانت نتائج لا تتعدى كل ما هو معروف لدى السيكلوجيا «الأكاديمية» وحسب ، وإنما تتعدى أيضاً حدود السيكلوجيا الطبية الشخصية حصراً . لقد كانت لقي ذات صلة بظاهراتية رحيبة لم يعد ممكناً أن نطبق عليها المقولات والمناهج التي عرفناها حتى الآن . لكن النتائج التي توصلت اليها ، وهي مبنية على مجهود بذلته طوال خمسة عشر عاماً ، بدت لي نتائج غير حاسمة ، لأن ما من مقارنة ممكنة كانت متاحة . إذ لم أعرف حقلاً من حقول الخبرة البشرية كان يمكنني به أن أدعم لُقاى دعماً على شيء من اليقين . المقارنات الوحيدة الممكنة - وقد كانت هذه موهلة في القدم كما يجب علي أن اعترف - هي ما وجدته متفرقاً في تضاعيف التقارير التي كتبت عن الهراقة . غير أن هذه الصلة لم تكن لتيسر علي المهمة التي نذبت نفسي لها ؛ على العكس ، لقد زادت من صعوبتها ؛ ذلك أن الأنظمة الغنوصية لم تكن تتألف من الاختبارات النفسية المباشرة الا في جزء صغير منها ، لقد كان القسم الأعظم منها عبارة عن

تعديلات ذات طابع نظري وتصنيفي . ولما كنا لا نملك غير القليل من النصوص المفصلة ، وكان معظم ما هو معروف منها آتياً من روايات نقلها أو وضعها خصومهم المسيحيون ، كان لنا - أن لم نرد أن نقول غير الأقل - معرفة غير مكافئة عن تاريخ هذا الأدب الغريب والمختلط الذي تصعب الإحاطة به ، ويصح نفس الشيء عن محتوياته . لكن بعد أن أخذت بعين الاعتبار أن حقبة لا تقل عن سبعمائة وألف سنة أو ثمانمائة وألف سنة تفصل الحاضر عن الماضي ، بدا لي أن أستمد سنداً من ذلك الميدان ضرباً من المخاطرة الحارقة . ثم إن الصلات بين النتائج التي توصلت إليها وما يمكن أن أدمعها به من المادة الغنوصية كانت في جزء منها ذات طابع ثانوي تركت ثغرات في القضية الرئيسية ، مما جعل الإفادة من هذه المادة أمراً مستحيلاً .

ولقد جاء النص الذي أرسله لي ويلهلم لكي يساعدني على الخروج من هذه الورطة . اذ اشتمل بالضبط على تلك القطع التي طالما بحثت عنها على غير طائل عند الغنوصيين . وبذلك أصبح النص مناسبة طيبة لكي انشر ، في صيغة وقتية على الأقل ، بعضاً من النتائج الأساسية التي توصلت اليها في أبحاثي .

يوميث بدا لي من غير المهم أن يكون «سر الزهرة الذهبية» نصاً طائوياً عن اليوغا الصينية وحسب ، وإنما أن يكون أثراً سيميائياً أيضاً . مهما يكن من أمر ، فقد أتاحت لي دراسة عميقة للأثار اللاتينية قمت بها فيما بعد أن أصبح نظرتي اذ أظهرتني على أن الطابع السيميائي الذي اتسم به النص لذو أهمية من الدرجة الأولى . لكن هذا ، من غير ريب ، ليس هو المكان الذي ينبغي أن أدخل فيه في مزيد من التفاصيل حول هذه النقطة . لنؤكد على أن نص «الزهرة الذهبية» هو أول ما وضعني على وجهة الطريق الصحيح . فلدينا في السيمياء الوسيطة الحلقة الواصلة التي طالما بحثنا عنها بين الغنوص وسياقات الخافية الجامعة التي نلاحظها اليوم في الإنسان الحديث .

اغتنم هذه الفرصة لكي أشير الى بعض أخطاء في الفهم وقع ضحيتها حتى العالمون من قراء هذا الكتاب . ليس من الأمور غير المكررة أن يظن أناس أن

غرضي من نشر هذا الكتاب هو أن أضع بين أيدي الجمهور منهجاً في تحقيق السعادة . لقد حفل مثل هؤلاء القراء ، في فهم مغاير كلياً لما أقول في الشرح ، أن يقلدوا «المنهج» المصوف في النص الصيني . عسى أن يكون هؤلاء الممثلون للعمق الروحي قليلي العدد !!

وهناك خطأ آخر في الفهم نشأ عنه رأي يقول بأنني ، في الشرح ، كنت رسمت الى حدٍّ ماصورة لمنهجي في العلاج النفسي الذي قيل بأنه يتكون من ايمائي لمرضاي بأفكار شرقية لأغراض شفائية . لا أعتقد أنّ في شرحي ما يعير نفسه الى ذلك النوع من الحشعلات . على كل حال ، ان مثل هذا الرأي خاطيء كلياً ، وهو مبني على المفهوم لشائع بأن علم النفس ما هو الا اختراع من أجل غرض محدد وليس بالعلم التجريبي . وإلى هذه الطائفة ينتسب الرأي الآخر الذي يساويه سطحية وغباء والقتل بأن فكرة «الخافية الجامعة» Collective Unconscious ما هي الا فكرة «ميتافيزيقية» . انها مسألة مفهوم تجريبي يجب وضعها الى جانب مفهوم «الغريزة» ، كما بضح ذلك لكل من يقرأ في شيء من الانتباه .

اضفّت الى هذه الطبعة الثانية الخطاب الذي ألقينته تكريماً لريتشارد ويلهلم في الحفل التذكاري الذي أقيم له في ميونيخ في العاشر من أيار من عام ١٩٣٠ . وقد سبق وأن نُشر في الطبعة الإنكليزية الأولى لعام ١٩٣١ .

ك . غ . يونغ



مقدمة الطبعة الألمانية الخامسة

أضيف الى هذه الطبعة ترجمة الجزء التمهيدي من نص تأملي آخر ينبع من تقليد عائل للتقليد الذي يكون «سر الزهرة الذهبية» جزءاً منه ، ويظهر مع هذا الأخير في الطبعة الصينية . وقد كتب ريتشارد ويلهلم المدخل القصير التالي الى هذا النص التأملي في عام ١٩٢٦ :

كتاب الهوي مينغ تشنغ ، أو كتاب الوعي والحياة ، كتبه ليوهوا - يانغ في العام ١٧٩٤ . كان المؤلف من مواليد مقاطعة كيانكسي ، ثم أصبح راهباً في دير «زهرة اللوتس الزوجية» في مقاطعة انهوي . الترجمة مستقاة من طبعة جديدة عدتها ألف نسخة طبعت من «سر الزهرة الذهبية» في عام ١٩٢١ ، وتولّى طبعتها شخص انتحل لنفسه اسم هوي تشن - تسو (والذي أصبح عارفاً للحقيقة) .

يتضمن النص توجيهات بوذية وطاوية تتصل بالتأمل . وتقوم فكرته الأساسية على أن قطري النفس ، الواعية والخافية ، ينفصلان عند الولادة . فالواعية هي العنصر الذي يعين ما هو منفصل ومستفرد في الشخص ، والخافية هي العنصر الذي يوحد الانسان بالكوف . وان توحيد العنصرين عن طريق التأمل هو المبدأ الذي يقوم عليه العمل . يجب تلميح الخافية بالواعية من حيث هي منغمسة فيها . بهذه الطريقة

تنشط الخافية وترتفع ، الى جانب الواعية المغتنية ، الى مستوى عقلي يفوق المستوى الشخصي ، ويتبدى ولادةً روحيةً جديدة . ثم تؤدي هذه الولادة الجديدة أولاً الى تمايز داخلي متقدم لحالة الوعي في بُنى فكرية مستقلة . غير أن خاتمة التأمل تؤدي اضطراراً الى محو جميع الفروقات من الحياة المتكاملة النهائية ، وهي حياة خالصة من الأضداد .

ظهرت الترجمة الألمانية (لهذا النص التأملي) أول مرة في عام ١٩٢٦ ، وقد قام بالترجمة الدكتور ل . س . لو ، الذي كان في ذلك الحين معاوناً لريتشارد ويلهلم وأميناً للمعهد الصيني في فرانكفورت . وقد تمت الترجمة بناء على اقتراح من ويلهلم الذي قام بمراجعتها فجاءت في صيغتها الراهنة قريبة جداً من أسلوب ترجمة «سر الزهرة الذهبية» ، ولما كانت الترجمة الأولى محدودة النسخ ، رأينا من المناسب اغتنام هذه الفرصة ووضع النص في متناول دائرة أوسع من القراء .

١٩٥٧

سالومي ويلهلم



تعريف ريتشارد ويلهلم بالنص

أصل ومحتويات كتاب الـ «طآي آي تشنْ هُوا تسونغ تشيه»

أو

سر الزهرة الذهبية

١ - اصل الكتاب

مصدر الكتاب دائرة باطنية صينية . وقد ظل حقبةً طويلة ينقل بالرواية الشفهية ، ثم صار يُنقل كتابةً . ترجع أول طبعة له الى القرن الثامن عشر . ثم أعيد طبع ألف نسخة منه في بكين عام ١٩٢٦ ، ومعه «هوي مينغ تشنغ» ، كتاب الوعي والحياة ، وزعت على طائفة صغيرة من الناس الذين رأى الناشرون انهم يفهمون المسائل التي يتناولها . وهذا يفسر أسباب حصولي على نسخة منه . كانت إعادة طبع الكتاب ووضعه في التداول ناشئة عن اليقظة الدينية الجديدة النابعة من متطلبات الأوضاع الاقتصادية والسياسية في الصين ، حيث تشكلت سلسلة من الفرق السرية ترمي الى الوصول ، عن طريق ممارسة التقاليد السرية التي ترجع الى الأزمنة القديمة ، الى حالة نفسية ترفعهم فوق جميع أنواع بؤس الحياة . وكانت الطرق المؤدية الى ذلك هي الكتابة السحرية والصلاة والتضحية الخ . اضافة الى الجلسات الوسيطية الواسعة الانتشار في الصين ، حيث كان يجري بواسطتها محاولة الاتصال المباشر بالآلهة والموتى ؛ هذا فضلاً عن إجراء التجارب بواسطة اللوحة الصغيرة^(١) ، أو القلم ذي الروح الطائرة كما يسميه الصينيون .

(١) - من الأمور الغريبة ان الرجل الذي أذاع هذا النص كتب له على اللوحة الصغيرة مقدمة أعدها =

لكن ، جنباً الى جنب مع هذه الممارسات ، كان هناك حركة باطنية محضت نفسها للطريق السيكولوجي ، وأعني به التأمل ، أو ممارسة اليوغا . كان اتباع هذا الطريق ، تمييزاً لهم من الـ «يوغي» ، الأوروبيين الذين لا تعني لهم هذه الممارسات الشرقية أكثر من شكل من أشكال الرياضة ، يصلون الى الخبرة المركزية ، ويكاد أن يكون ذلك بلا استثناء . وبذا يمكننا القول أن ثمة طريقاً مضموناً تماماً يفضي بنا الى اختبارات نفسية محددة . (هنا يجب أن نلاحظ أن ك . غ . يونغ كان على حق عندما بين ان العقلية الصينية ، حتى عهد قريب جداً على الأقل ، تختلف اختلافاً جوهرياً في بعض جوانبها الأساسية عن العقلية الأوروبية) . الى جانب التحلل من اغلال العالم الخارجي الوهمي ، ثمة أهداف كثيرة أخرى كانت الفرق المختلفة تسعى الى تحقيقها . فالفرق ذات المستويات الأعلى تستخدم هذا التحلل (من الأغلال) ، الحاصل بالتأمل ، لكي تصل الى النرفانا البوذية ، أو هي تتعلم ، كما في المثال المبين في هذا الكتاب ، أن باستطاعة الانسان عن طريق اتحاد المبدأ الروحي الكامن فيه بالقوى النفسية المتلازمة معه أن يعد نفسه لامكانية الحياة بعد الموت ، لا كمجرد كائن شبحي محكوم عليه بالتفسخ والانحلال ، بل كروح واعية مدركة . يضاف الى ذلك ، وفي الأغلب فيما يتصل بهذه الفكرة ، وجود مدارس فكرية تحاول بواسطة هذا التأمل أن تمارس تأثيراً نفسياً على سياقات معينة في الجملة العصبية . (لعلنا كأوروبيين كنا نكلمنا هنا على جملة الغدد الصماء) . ومن شأن هذا التأثير أن يقوّي ويمجّد ويسوي سياقات الحياة ، حتى ليقهر الموت بطريقة تجعله نهاية منسجمة للحياة . أي ، أن المبدأ الروحي ، بعد أن يتكيف مع استمرارية مستقلة من الحياة في جسد الروح ، المخلوق من نظام طاقته الخاصة ، يغادر الجسد الأرضي ويخلفه وراءه كما تخلف ذبابة الـ «سيكادا» قشرتها .

^{١٠} لو- تسو- شيخ أسرة طانغ (٦١٨ - ٩٠٧م) ، الذي عهد اليه بهذه التعاليم . غير أن هذه المقدمة تختلف جداً عن الأفكار التي يعرضها الكتاب ، أفكار سطحية ولا معنى لها ، شأنها كشأن أكثر ما ينتج عن هذه التجارب (ر . و) .

أما الطبقات الدنيا من هذه الفرق فقد سلكت هذا الطريق سعياً وراء اكتساب قوى سحرية وقدرة على طرد الأرواح الشريرة والأمراض ، مستعينة بالطلاسم والتعاويذ ، الشفهية منها والمكتوبة . ان سلوك هذا الطريق قد يؤدي الى جنون جماعي طارئ يتخذ لنفسه شكل الاضطرابات الدينية والسياسية كما تبدى ذلك في حركة البوكسر على سبيل المثال . لكن ، في الآونة الاخيرة ، ظهر اتجاه توفيقى ذو حضور دائم تمثل في الانضمام الى هذه المنظمات اتباع يتبنون الى جميع ديانات العالم الخمس (الكنفوشيوسية ، الطاوية ، البوذية ، المحمدية ، المسيحية ، بل حتى اليهودية) من دون أن يترتب عليهم أن يقطعوا العرى مع دياناتهم التي نشؤوا عليها .

بعد أن وصفنا بإيجاز القاع الذي انبثقت منه هذه الحركات في زماننا ، لا بد لنا من قول كلمة عن المصادر التي تمحّدت منها تعاليم هذا الكتاب . فقد ظهرت اكتشافات رائعة الى النور ، ونحن نرى أن هذه المبادئ أقدم بكثير من صيغتها المكتوبة الراهنة . وقد يرجع كتاب «سر الزهرة الذهبية» الى القرن السابع عشر باعتبار انه طبع نقلاً عن ألواح خشبية . يصف لنا الناشر عثوره على نسخة غير تامة من الكتاب ترجع الى ذلك التاريخ في أحد شوارع بكين القديمة حيث تباع الكتب والتحف ، ويذكر لنا كيف أتمه فيما بعد نقلاً عن كتاب كان في حوزة أصدقائه . لكن التقليد الشفهي يرجع الى أقدم من ذلك التاريخ ، الى ديانة «أكسير الحياة الذهبي» التي ظهرت في القرن الثامن . ويقال أن مؤسس هذه الديانة هو شيخ الطاوية الشهير ، واسمه لو ين (لو تونغ - بن) ، الذي اعتبره الفولكلور أحد الخالدين الثمانية ، وتجمعت حوله بمرور الزمان ذخيرة غنية من الأساطير . وقد لقيت هذه الفرقة ، شأنها في هذا كشأن جميع الأديان ، من وطنية وأجنبية ، تساعها وعطفاً في حقبة «طأنغ» ، وانتشرت انتشاراً واسعاً . لكن ، بما انها كانت ديانة باطنية وسرية ، بدأت مع الأيام تعاني من الاضطهاد ، لأن اتباعها كان يُشك في انهم لا يمحكون المؤامرات والدسائس السياسية . ثم توالى الملاحقات على اتباعها من قبل حكومة ناصبتهم العداء ، ثم بطريقة بالغة القسوة من قبل أسرة «مانشو» ، قبيل

سقوطها^(١) . فتحول كثير من أتباعها الى المسيحية ، وكانوا جميعاً ، حتى ولو لم يدخلوا الكنيسة فعلاً ، يتخذون من المسيحية موقفاً يتصف بالمودة .

يقدم لنا هذا الكتاب خير وصف متوفر لديانة «اكسير الحياة الذهبي» وتنسب الأقوال التي تضمنها الى لو- ين ، واسمه الآخر لو تونغ- بن ، أو «لو» ، نزيل الكهف . ويعرفنا به الكتاب بالأب لو ، لو- تسو . عاش بين نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع . وقد أضيف الى أقواله شرح لاحق ينبع من نفس التقليد .

من أين حصل «لو» على علمه الباطني ، السري ؟ هو نفسه ينسب علمه الى «كوان ين- هسي» ، المعلم ين- هسي الباسي ، الذي دون لأجله «لاو- تسي» كتابه الموسوم بعنوان «طاوئه تشنغ» ، على ما يذكر التقليد . والحق اننا لنجد في هيكلة التعاليم أفكاراً كثيرة جداً مأخوذة من تعليم صوفي باطني وسري نجده في «طاوئه تشنغ» ، من ذلك «آلهة الوادي» التي نجدها تحت اسم «روح الوادي» عند لاو- تسي . لكن بينما أخذت الطاوية تنحط تدريجياً في الحقبة الهانبة^(١) الى سحر خارجي بسبب سعي سحرة القصر الطاويين بواسطة السيمياء للعثور على الحبة الذهبية (حجر الفلاسفة) التي تتخلق من المعادن الخسيسة ذهباً وتهب الناس خلوداً فيزيائياً ، كانت حركة «لو ين» تمثل إصلاحاً في الطاوية ، اذ غدت العلامات السيميائية رموزاً للسياقات النفسية . من هذه الناحية ، كانت وثيقة الصلة بأفكار «لاو- تسي» الأصلية . غير أن هذا الأخير كان إنساناً حراً تماماً ، وكان خَلْقُهُ «تشوانغ- تسو» يحتمل من كانوا يمارسون اليوغا في شعودة ، كما كان يحتمل المتطهين والجارين وراء «اكسير الحياة» ، رغم انه هو نفسه ، طبعاً ، كان يمارس التأمل الذي استطاع بواسطته أن يصل الى ذلك الحدس بالوحدة التي أسس عليها في وقت لاحق نظامه المتطور فكرياً . عند «لو ين» نجد قدراً معيناً من الإيمان ، اتجاهاً دينياً أفتنعه ، بتحريض من البوذية ، بالصفة الوهمية لجميع الأشياء الخارجية ، لكن بطريقة تختلف

(١)- في عام ١٨٩١م ، قتل أجرام «مانشو» ١٥,٠٠٠ من أتباعها .

(١)- بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الثالث بعده (ك . ف . ب) .

اختلافاً بيناً عن البوذية . فقد كان ينشد بكل ما أوتي من قوة القطب الثابت في زوالية الظاهرات ، حيث يستطيع الشيخ أن يبلغ الحياة الأبدية ، وهذه فكرة غريبة جداً عن البوذية ، التي تنكر على «الأنية» Ego أن يكون لها جوهر . غير أننا يجب ألا نقلل من أهمية تأثير البوذية المهيانية التي كانت سيطرت على الفكر الصيني في تلك الحقبة . فالمقاطع البوذية يُستشهد بها مرة بعد مرة . والحق أن هذا التأثير في النص الذي نعرضه هو أكبر مما قد يظن أن تكون عليه الحال في ديانة اكسير الحياة الذهبي عموماً . ففي النصف الثاني من الجزء الثالث اشارة صريحة الى المنهج المعروف بـ «تشيت التفكير» ، (تشيه - كوان) ، وهو منهج بوذي صرفاً كانت تمارسه مدرسة طُيَّان طَيَّاي التي من تشيه كَيَّاي [تشيه آي ٥٣١ - ٥٩٧م] .

بعد هذه النقطة نلاحظ انقطاعاً في سلسلة التفكير . فمن ناحية ، نجد زيادة في وصف تعهد الزهرة بالعناية ، ومن ناحية ثانية ، تظهر أفكار بوذية صرفة تشجب العالم ، وتنقل الهدف بصورة توكيدية نحو النرفانا . ثم يلي ذلك عدة أجزاء^(١) ليس لها قيمة أكثر من سقط المتاع ، اذا اعتبرنا الارتقاء الروحي والتماسك الذي تميز به العمل على وجه الإجمال . زد على ذلك أن السعي نحو الولادة الداخلية الجديدة من خلال «دوران النور» ، وخلق لباب الحية الإلهية ، لا يوصف إلا في مراحل الأولى ، مع أن المراحل الأخيرة هي المسماة بالهدف . (قارن ذلك بـ هوي مَنغ تشنغ ، الذي وضعه ليو هُوا - يانغ ، حيث تُشرح هذه المراحل بعناية أكبر) . ولذلك لا يَسَعنا إلا الارتياح في أن جزءاً من المخطوط قد ضاع فعلاً واستعِض عنه من مصادر أخرى . ان صبح هذا ، فقد يفسر لنا انقطاع الاستمرارية وتدني نوعية الأجزاء التي لم نترجمها هنا .

غير أننا ، حين نقرأ النص خالين من الغرض ، لسوف نجد أن هذين المصدرين ، الطاوية والبوذية ، غير كافيين لتغطية كل المجال الفكري الذي تضمنه

(١) - هذه الأجزاء محذوفة من الترجمة الحالية (ر . و) .

النص : فالكنفوشيوسية في الهيئة التي قام عليها كتاب الـ «آي - تشنغ» داخلته فيه أيضاً . فالمثلثات الثمانية الأساسية (باكوا) التي تضمنها كتاب الـ «آي - تشنغ» مندرجة في مختلف المقاطع من النص باعتبارها رموزاً لسياقات داخلية معينة ، وفيما بعد سوف نعمل على شرح الأثر الناتج عن استخدام هذا الرمز . فيما يتعلق بالجوانب الأخرى ، بما أن الكنفوشيوسية يجمعها والطاوية قاعدة مشتركة واسعة ، فإن اجتماع هاتين المدرستين الفكريتين في النص لم يفقده تماسكه .

ولعل أكثر من قارئ اوروبي يستوقفه ويروعه أن يجد في النص أقوالاً مألوفة له في التعليم المسيحي ، بينما نجد ، من ناحية أخرى ، نفس هذه الأشياء المعروفة ، التي غالباً ما تعتبر في أوروبا اصطلاحات اكليريكية ليس غير ، نجدها هنا في منظور مختلف تماماً بسبب الصلات السيكلوجية التي تستعمل فيها . ففيه نجد حدوساً ومفاهيم من مثل ما يلي ، نختار لا على التعيين بضعة منها مما نقف عنده على وجه الخصوص : النور حياة الإنسان . العين ضياء الجسد . الإنسان يولد روحياً ولادة ثانية من الماء والنار . وإلى ذلك يجب أن نضيف «أرض الفكر» (روح) ، بما هي رحم ، أو حقل محروث . لنقارن هذا بأقوال يوحنا : «اعمدكم بالماء ، وسوف يأتي بعددي من يعمد بالروح القدس ونار» ، أو : «ما لم يولد الإنسان من الماء والروح ، لن يدخل ملكوت الله . لشد ما تغدو فكرة الماء موحية ، مثلاً من حيث إنها «لباب الحبة» في النص الصيني . ولشد ما يتضح الفرق بين فعالية «الجريان نحو الخارج» الذي يستنفذ نفسه في ولادة (ما هو مولود من الجسد يظل جسداً) ، وبين حركة «الجريان الى الخلف» (الولادة الجديدة) .

والحمام ، أيضاً ، يلعب دوره في الولادة الجديدة ، كما يفعل ذلك في المعمودية التي بشر بها يوحنا ، وفي المعمودية المسيحية أيضاً . حتى الزواج السري ، الذي يلعب مثل هذا الدور الهام في الأمثال المسيحية ، يظهر مرات عديدة . كذلك هناك ذكر للولد ، الصبي الذي في داخل نفوسنا (Puer aeternus ، المسيح ، الذي يجب أن يولد فينا ، الذي هو عريس الروح من جانب آخر) ، والعروس أيضاً . ولعل أكثر ما يستوقفنا ، حتى وإن كان ذلك جزئية صغيرة

ظاهرياً ، هو الحاجة الى تعمير المصابيح بالزيت لكي يسطع نورها ، نجدها ترتدي معنى سيكولوجياً جديداً ووزناً في نصنا . وجدير بالذكر أن تعبير «الزهرة الذهبية» (تشن هُوا) ، في سياقها الباطني ، ينطوي على كلمة «النور» . فلو كتبنا الحرفين احدهما فوق الآخر حتى يتلامسا ، لشكّل الجزء الأسفل من الحرف الأعلى ، والجزء الأعلى من الحرف الأسفل ، الحرف الدالّ على «النور» (كوانغ) . واضح أن هذه العلامة السرية كان اختراعها في زمن الاضطهاد ، عندما كان ضرورياً إسدال ستار كئيف من السرية لكي يتاح للقسيمة مزيد من الانتشار . ولقد كان هذا بدوره دائماً هو السبب في بقاء التعليم مقصوراً على أوساط سرية . لكن حتى في يومنا يظل اتباعها أكبر مما يبدو لنا من الخارج .

ولو تساءلنا من أين جاءت ديانة النور هذه ، لذهب تفكيرنا قبل كل شيء الى فارس ، فقد كان في الحقبة الطائغية معابد فارسية في كثير من أنحاء الصين . ولكن حتى ولو اتفقت نقاط معينة مع ديانة زرادشت ، وخصوصاً مع التصوف الفارسي ، تظل ، من ناحية ثانية ، فروق كبيرة جداً قائمة . وهناك رأي آخر يجب أخذه بعين الاعتبار ، وأعني به التأثير المسيحي المباشر . فقد كانت المسيحية على مذهب نسطور ديانة إحدى القبائل التركية ، الأويغور ، التي كانت متحالفة مع الامبراطور في تلك الحقبة . حظيت هذه الديانة بعطف شديد ، كما يشهد على ذلك النصب التذكاري النسطوري الذي أقيم في «شيان فو» في عام ٧٨١ ، وقد نُقش عليه كتابة بالصينية والسريانية . وبذلك تكون الصلات بين النساطرة وديانة اكسير الحياة الذهبي امراً ممكناً جداً . حتى لقد ذهب تيموثي ريتشارد الى حد اعتباره ديانة اكسير الحياة الذهبي مجرد احياء لقدماء النساطرة . وقد أدّى به الى هذا الرأي موافقات معينة في الطقس وتقاليد معينة في ديانة اكسير الحياة الذهبي تتصل باكتساب العضوية وثيقة القربى بالممارسات المسيحية . وفي وقت لاحق تبنى هذه النظرية من جديد ب . ي . ساكي Sacki (١) ، وعزّزها بليتورجية نسطورية اكتشفها بليوت Pelliot في طون - هوانغ ،

(١) — The Nestorian Monument in China, London, 2nd edition, 1928.

وبنى عليها سلسلة من المقارنات ، حتى لقد ذهب الى حد الموازنة بين «لو- ين» ، مؤسس ديانة اكسير الحياة الذهبي ، وبين المدعو «آدم» الذي كتب النص على النصب النسطوري ، ودلّ على نفسه بالاسم الصيني : لو هُسيو- ين . بناء على هذه الفرضية ، يكون «لو- ين» ، مؤسس ديانة اكسير الحياة الذهبي ، مسيحياً من الفرقة النسطورية ! لقد أوغل «ساكي» استغراقاً في متعة المقارنات والمشايات : تكاد أن تكون جميع أدلته مقنعة ، لكن تظل تعوزها النقطة الحاسمة التي «تبرشم» المسألة . كثير من براهينه الجزئية تشكل برهاناً واحداً ، لكن علينا أن نجاريه على الأقل الى حد نقبل معه ان في ديانة اكسير الحياة الذهبي مزجاً قوياً من الأفكار النسطورية التي نجدها واضحة ايضاً في المخطوط الراهن . بعض هذه الأفكار يبدو غريباً جداً في ثيابه الغرب ، بينما اتخذت أفكار أخرى نوعاً جديداً ورائعاً من الحيوية . هنا نصل الى احدى هذه النقاط التي ما برحت تثبت أن «الشرق والغرب لم يعد بوسعهما أن يظلا مفترقين» ، على حد تعبير غوته .

٢ . المقدمات السيكلوجية والكوسمولوجية التي اشتمل عليها النص

لكي تكون هذه الترجمة مفهومة ، يجدر بنا قول بضع كلمات أخرى عن الأسس الفلسفية التي ينهض عليها المنهج . هذه الفلسفة هي ، الى مدى معين ، الخاصية المشتركة لجميع الاتجاهات الفلسفية الصينية . انها مبنية على مقدمة مؤداها أن الكون والإنسان ، في التحليل الأخير ، يخضعان لنفس الناموس ، إن الانسان هو العالم الأصغر ، ولا تفصله عن العالم الأكبر حواجز ثابتة . وأن نفس القوانين التي تنطبق على احدهما تنطبق ايضاً على الآخر ، وأن الطريق الى احدهما يفضي الى الآخر . وان النفس من الكون كالعالم الداخلي من العالم الخارجي . لذلك يسهم الإنسان في الطبيعة في كل الحوادث الكونية ، وهو منسوج معها داخلياً وخارجياً .

الطاو ، أو الطريق ، اذن يحكم الإنسان كما يحكم الطبيعة غير المرئية والمرئية (السما والارض). ويتكون الحرف الذي يدل على الطاو في صيغته الأصلية من «رأس» ، وربما يجب أن نترجمه بـ «البداية» ، ومن الحرف الذي يدل على «الذهاب» في صيغته المزدوجة التي تنطوي أيضاً على معنى «الطريق» ، وتحت هذين الحرفين حرف يدل على «لسكون» ، صار يحذف في طريقة الكتابة المتأخرة . اذن ، المعنى الأصلي يدل على «طريق» ينطلق من البداية ويفضي رأساً الى النهاية او الغاية ، وإن كان الطريق نفسه ثابتاً . وتقوم الفكرة الأساسية على أن الطاو هو الوسيلة لكل حركة وهو الذي يهبها انانوف ، وإن كان هو نفسه لا حراك فيه . وعلى هذا تكون الأفلاك السماوية هي الطرق التي تسير عليها الكواكب ، وفلك الإنسان هو الطريق الذي يجب أن يسافر عليه . لقد استخدم لاء- تسي هذه الكلمة - وإن كان استخدامه لها بالمعنى الميتافيزيقي- باعتبارها المبدأ العالمي النهائي الذي يسبق التحقق (أو الصيرورة في الواقع) ، ولم زل غير منقسم بفعل تباعد الأضواء التي يتوقف عليها الانبثاق الى واقع .

في الكنفوشيوسية فرق في المصطلح ، فيها لكلمة «طاو» معنى عالم داخلي ، ومعناه «الطريق لصحيح» ، فهو ؛ من ناحية ، طريق السماء ، وهو ، من ناحية أخرى ، طريق إنسان . في الكنفوشيوسية ، المبدأ النهائي للواحد غير المنقسم هو ال «طائي» - تشي (قطب التقاطع الأعظم ، النهاية العظمى) . ويظهر اصطلاح «قطب» عَرَضاً في هذا الكتاب أيضاً ، وحيثما يظهر يكن متماثلاً عن الطاو (الطريق) ، وال «طاي» - تشي (قطب التقاطع) ، صدرت مبادئ الواقع ، باعتبار ان احد القطبين هو لنور (يانغ) والثاني الظلام أو الظل (ين) . من الباحثين الاوروبيين من التفت أولاً الى الجنس في تفسير هذين «المبدأين» ، لكن الحروف تدل على ظاهرات في الطبيعة . ين هو الظل ، وبالتالي هو الطرف الشمالي من الجبل والطرف الجنوبي من النهر (لأن موقع الشمس في النهار يجعل الطرف الجنوبي من النهر مظلماً) . اما يانغ ، في صيغته الأصلية الدالة على اعلام ترفرف وفي تطابق مع الحرف الدال على ين ، فهو الطرف الجنوبي من الجبل والطرف الشمالي من النهر .

اتطلاقاً من معنى «النور» و«الظلام» ، اتسع المبدأ بعد ذلك حتى بات مشتملاً على جميع الأضداد القطبية ، ومنها الأضداد الجنسية . هذا ، ولما كان ين ويانغ كلاهما لها أصل مشترك في «واحد» غير منقسم ، ولا يعلان الا في نطاق الظاهرات ، حيث يكون يانغ هو المبدأ الفاعل والشرط ، ويكون ين هو المبدأ القابل (= السالب) المشتق والمشروط ، كان من الواضح أن الثنائية الميتافيزيقية ليست هي الأساس في هذه الأفكار . وهناك مفهومان أقل تجريداً من ين ويانغ هما مفهوما المبدع والمتقبل للذات يرتد أصلهما الى «كتاب التغيرات» (آي تشنغ) ، ويرمز لهما بالسما والارض . من خلال اتحاد السما والارض ، ومن خلال فعالية القوى الأولية الثنائية في هذا الميدان من النشاط (المحكوم بالقانون الأولي) ، الطار ، تكونت «عشرة آلاف الأشياء» ، أي ، العالم الخارجي .

من هذه الأشياء ما لو نظرنا اليه من الخارج لوجدناه أيضاً في الإنسان في هيئته الجسمانية الذي ما هو في جميع أجزائه الا عالم صغير . وهكذا ، على ما تذهب اليه الكنفوشيوسية ، تأتي طبيعة الإنسان الداخلية من السماء ، أو هي ، كما يعبر عن ذلك الطاوية ، شكل ظاهراتي من الطاو ، في عالم الظاهرات ، ينمو الإنسان ويتكثر أفراداً وفي كل منهم جوهر فرد مركزي (روحي) هو مبدأ الحياة . لكنه في لحظة الحمل ، أي قبل الولادة ، ينقسم الى ظاهرتين ثنائيتي القطب هما الطبيعة البشرية (هسِنغ) والحياة (مِنغ) . الكلمة التي تدل على الطبيعة البشرية مؤلفة من كلمات تدل على القلب أو العقل (هسين) ، وعلى الأصل ، بما هو مولود (شنغ Sheng) . والقلب ، في الفكر الصيني ، هو مركز الواعية الانفعالية ، التي توقظها الحواس الخمس من خلال الرجوعات (= ردود الأفعال) غير الفكرية على الانطباعات التي تتلقاها من العالم الخارجي . اما الذي يبقى بمثابة طبقة سفلية حيث لا مشاعر يعبر عنها ، ويظل في حالة مفارقة تسمو على الوعي فهو الطبيعة البشرية (هسِنغ) . وتتفاوت الطبيعة البشرية بحسب ادق تحديد لهذا المفهوم ، فتكون اما خيرة في أصل نشأتها ، اذا نظرنا اليها من منطلق الفكرة الأبدية (منشيوس) ، او تكون شريرة ، أو

حيادية في أحسن الأحوال . لكن ان نظرنا اليها من منطلق التطور التاريخي -
التجريبي ، لا بكن أن تصبح شيئاً خيراً الا بتطوير للجذور .

وتبدو الطبة البشرية ، بما هي فكرة لا شك انها ذات صلة باللوغوس
(الكلمة) ، تبدو بمحبة حبكاً جيداً بالحياة (منع) عندما تدخل في عالم الظاهرات .
الحرف الدال على «منع» يعني في الحقيقة أمراً ملكياً ، وبالتالي قدراً ومصيراً ، أي
القدر المكتوب على الإنسان ، وبالتالي أيضاً ، مدة الحياة أو العمر ، ومقدار الطاقة
الحوية الموضوعة تحت تصرف الإنسان ، وبذلك تكون الحياة وثيقة الصلة بالإيروس
(العشق) . كلا لبدأين غير فردي ، او يتجاوز الفرد ، ان صح التعبير . فالإنسان ،
بما هو كائن روجي ، مخلوق بشرياً بطبيعته (هسنع) . ورغم أن الفرد يمتلكها ، الا
انها تمتد بعيداً الى ما وراء حدود فرديته . والحياة (منع) أيضاً غير فردية ، من حيث أن
الانسان يجب أن يسلم بقدرة بلا مناقشة ، لأنه لا ينبع من إرادته الواعية
الكنفوشيوسية ترى في الحياة (منع) قانوناً سموياً يجب على الإنسان ان يتكيف
بحسبه ، والطاوة تفهمها لعبة متعددة الألوان من الطبيعة لا فكك لها من نواميس
الطاوة ، لكنها مبادقة بحتة مع ذلك ، اما البوذية الصينية فتراها صنعة صنعتها
(الكرما) في قلب عالم الوهم .

إلى جانب هذه الثنائيات ، تتطابق في الإنسان الشخصي - الجسماني
التوترات الثنائية القطب التالية : الجسد ينشطه تبادل التأثير والتأثر بين بنيتين
نفسيتين : الأول ، هُون hun ، وقد ترجمتها ، بسبب من انتسابها الى مبدأ
(يانغ) ، بالأنيم^(١) ، والثانية ، بُوو ، التي تنسب الى مبدأ (ين) ، وقد ترجمتها

(١) - استخدام ويلهم لاصطلاح «الأنيم» animus يمنح الكلمة معنى مختلفاً عن المعنى الذي يدل عليه
مفهوم يونغ ، حيث الأنيم عنصر في تكوين المرأة النفسي . فيونغ يرى ان «هُون» قريباً من معنى
(اللوغوس) ، لكن اذا الاصطلاح لا يمكن استخدامه بدلاً من ان «هُون» ، أولاً ، لوجود مفهوم
صيني آخر لم يزل أب الى اللوغوس وأعطى به «هسنع» ، أو الطبيعة البشرية ، وأيضاً ، لأن ان
«هُون» يوصف بأنه عمل شخصي ، بينما (اللوغوس) غير شخصي ، بتدقيق المعنى . والتعبير «روح» -

بالأنيمة^(٢) . كلتا الفكرتين آتية من ملاحظة ما يجري عند الموت ، ولذلك تحتوي كلتاهما ، في هيئتها المكتوبة ، على علامة الشيطان أو العفريت^(١) ، أي المغادر أو البارح (كروي) . وكان يُعتقد أن الأنيمة ذات ارتباط وثيق بالسياقات الجسمانية ، عند الموت تغور في الأرض وتتحلل . أما الأنيم فهو الروح الأعلى ، بعد الموت يعلو في الهواء ، حيث يظل في مبدأ الأمر ناشطاً مدة ثم يتبخر في الفراغ الأثيري ، أو ينكفىء الى حيث مخزن الحياة العام . وعند الأحياء ينطبق الاثنان الى درجة معينة على الجملة الدماغية وعلى جملة الضفيرة الشمسية ، ترتيياً . الأنيم يسكن في العينين ، والأنيمة في البطن . الأنيم ساطع ونشيط ، والأنيمة مظلمة ومقيدة الى الأرض . هذا ، وإن العلامة الدالة على الـ «هون» (الأنيم) مركبة من أحرف تدل على «الشيطان» و«الغيم» ، بينما العلامة الدالة على الـ «بؤو» (الأنيمة) مؤلفة من الأحرف الدالة على «الشيطان» و«الأبيض» . ان من شأن هذا أن يدل على أفكار ثنائية ما نجده في عقائد أخرى كالظل - الروح والجسد - الروح ، ولا شك أن المفهوم الصيني يتضمن شيئاً من هذا القبيل . غير أننا يجب أن نحاذر من الوقوع في مسألة المشتقات ، لأن الرسم الدال على الشيطان لا وجود له في معظم الكتابة القديمة ، ولذلك قد نجد أنفسنا نتعامل مع رموز أولية غير اشتقاقية . على كل حال ، ان الأنيم (هون) هو روح يانغ المضيء ، والأنيمة (بؤو) هي روح ين المظلمة .

= نفس ، بما هو مضاد للنفس او الروح الأرضية ، قد يشتمل على معنى «هون» كما شرحه ويلهلم . ولكي نتجنب التباساً محتملاً في المصطلح قررنا أحداث هذا التبديل في الترجمة الانكليزية ، بعد ان اتفق المؤلفان على ان مثل هذا التغيير أمر مرغوب فيه . ولكن رغم ان الاستبدال قد يسهل الأشياء على القارئ ولن يتضمن تغييراً في المعنى ، الا انه يظل يستلزم ترتيياً جديداً لعدد من المقاطع مما من شأنه أن يفضي الى تباين واسع بين الطبعين . لهذا السبب ، قررنا الا نحدث التغيير المطلوب (ك . ف . ب) .

(٢) - يجدر بالملاحظة أن «بؤو» لا تنطبق الا على جانب واحد من (الأنيمة) كما يفهمها يونغ بحسب مفهوم هذا الأخير ، الجانب الروحي من (الأنيمة) هو في مثل أهمية الجانب الحيواني منها تماماً (ك . ف . ب) .

(١) - كلمة «شيطان» في الصينية لا تنطوي بالضرورة على مدلول شرير .

الدفق العادي وفق اتجاه عقارب الساعة^(١) ، اي تدفق سياق الحياة انحداراً نحو الأسفل ، هو الدفق الذي تدخل فيه الروحان في علاقة فيما بينهما ، بما هما العاملان العقلي والحيواني . الأصل ان تكون الأنيمة ، الإرادة غير المميزة التي تجبر الأنيم أو العقل ، مدفوعة بالعواطف والأهواء ، على خدمتها . على الأقل تفعل الأنيمة هذا الى الحد الذي يتجه فيه العقل نحو الخارج ، فترشح طاقة كل من الأنيم والأنيمة الى الخارج وتستهلك الحياة نفسها .

من النتائج الايجابية لذلك خلق كائنات جديدة تستمر فيهم الحياة ، بينما «يستظهر» الكائن الأصلي نفسه ، وفي النهاية تحوله الأشياء الى شيء . النتيجة هي الموت . الأنيمة تغوص ، والأنيم ينهض . أما الأنية Ego ، بعد أن سُلبت منها طاقتها ، فتخلف الى الوراء في حالة مشكوك فيها .

اذا ادعنت الأنية للاستظهار ، مضت مندفعة نحو الأسفل وغارت في شقاء الموت ، لا تقتات الا على قليل من صور الحياة الوهمية التي تظل منجذبة اليها بدون أن تكون قادرة على المشاركة في شيء بصورة ايجابية (جسيم ، ارواح جائعة) . لكن اذا حاولت الأنية جاهدة أن ترتقي الى الأعلى بالرغم من سياق «الاستظهار» ، احتفظت لمدة (طالما شدّ من عزيمتها الجهود التي يبذلها الأحياء في القرابين

(١) - الكلمة الألمانية المستعملة هي Reichtlauffg التي تعني ، لو ترجمناها حرفياً ، «الدفق الصحيح» وهي تصف «طاقات» الجسد التي تدفق انحداراً نحو الأسفل . وهكذا ترجمناها في جميع الحالات ، ما عدا الحالة المذكورة اعلاه ، بالدفق الذي ينحدر الى الأسفل بل يسد عليها ، توصف الحركة بأنها دفق الى الخلف Rucklauffg . يعلمنا نظام اليوغا تقانية التأمل التي نستطيع بواسطتها ان نعكس دفق الطاقة الطبيعي ، وأن نرفع الطاقة الى المراكز العليا ، حيث تصبح روحاً . اذا تركنا هذه النتيجة الأخيرة ، يصبح من اليسر على تلميذ علم النفس التحليلي أن يدرك الصلة بين جريان الطاقة الى الأسفل او الى الأعلى ومفهومي الانبساط والانطواء . هناك فرق هام هو أن الانبساط والانطواء لا ينطبقان الا على حركة الطاقة النفسية بينما يشتمل المفهوم الصيني على السياقين النفسي والفيزيولوجي جميعاً (ك ف ب) .

* - أي يجعل نفسه في «الظاهر» أو «الخارج» - المترجم .

والأضاحي) بحياة سعيدة نسبياً ، كل بحسب ما يستحق . في كلا الحالين ، يتقهقر العنصر الشخصي ثم يعقبه انطواء يتناسب مع الاستظهار . وعندئذ يصبح الكائن شبحاً عاجزاً لا فتقاره الى طاقات الحياة ، ويأتي الى نهايته المحتومة . انه الآن ينال قسطه من ثمار أعماله الصالحة أو الشريرة ، إن في الجنة أو في النار ؛ وهما ، على كل حال ، ليسا شيئين خارجيين ، بل احوال داخلية صرفة . وكلما توغل الكائن في هذه الأحوال ، اشتد انطواؤه حتى يتلاشى نهائياً من صعيد الوجود ، كائناً ما كانت طبيعته ، ثم يدخل رحماً جديدة ، ويبدأ وجوداً جديداً مزوداً بتصوراته السابقة . هذه الحال هي حال الشيطان ، الروح ، البارح ، الذي ينسحب ، الكلمة الصينية الدالة على هذه الحال من الكينونة هي (كواي) Kuci (غالباً ما تترجم خطأ بـ «الشيطان») .

ومن ناحية ثانية ، اذا امكن للإنسان احداث «الدفق الى الخلف» في أثناء الحياة ، أي توجيه حركة طاقات الحياة الى الأعلى ، وسيطر الأنيم على طاقات الأنيمة ، عندئذ يتحرر من الأشياء الخارجية . وهي أشياء معترف بها لكن يجب ألا تكون مشتهة . بذلك يُسلب الوهم طاقته ، وتحدث دورة للطاقات داخلية ومتصاعدة . وتنسحب الأنية من شرك هذا العالم ، وتبقى حية بعد الموت لأن «الاستبطان»* حال دونها وتبديد طاقات الحياة في العالم الخارجي . فبدلاً من تبديد هذه الطاقات ، تخلق في قلب الدوران الداخلي للجوهر الفرد (الروحي) مركز حياة مستقلاً عن الوجود الجسماني . مثل هذه الأنية تكون لها ، Shen, deus والحرف الدال على shen يعني الامتداد والخلق ، والـ (شن) هو ضد الـ (كواي) . في الكتابة الصينية الأقدم ، يتمثل الـ (شن) بشكل متعرج مزدوج ، ويمكن أن يعني أيضاً الرعد والصاعقة والتحرير والكهربائي . مثل هذا الكائن يظل حياً (بعد الموت) ما ظل الدوران الداخلي مستمراً . فيستطيع ، حتى ولو كان غير مرئي ، أن يؤثر في الناس ، ويوحى اليهم بالأفكار العظيمة والأفعال النبيلة . والأولياء والحكماء في

* - جعل الشيء في الباطن أو الداخل - المترجم - .

الأزمنة القديمة الذين ألهموا وعلموا البشرية على مدى آلاف السنين هم كائنات مثل هؤلاء .

الا أن حدًا يظل قائمًا . هذه الكائنات تحتفظ بهيئتها الشخصية ، وهي بالتالي تخضع لتأثيرات الزمان والمكان . فهي ليست كائنات خالدة بأكثر من خلود السماء والأرض . وليس يخلد غير « الزهرة الذهبية » التي تنبت من الانفصال الداخلي عن جميع أنواع الارتباط بالأشياء . والإنسان الذي يبلغ هذه الدرجة يتخلع عنه أنيته ولا يعود أبدًا محدودًا بالجواهر الفرد ، بل يسري في الدائرة السحرية ذات الثنائية القطبية لجميع الظواهر ، ويعود إلى « الواحد » غير المنقسم ، إلى الطاو . هنا يكمن فرق بين البوذية والطاوية . في البوذية ، ترتبط هذه العودة إلى النرفانا بانطفاء الأنية انطفاء تامًا ، التي هي كالعالم ليست غير وهم . وإذا لم تُفسَّر النرفانا بالموت والانقطاع ، ظلت متعالية تدقيقًا . أما في الطاوية فالهدف هو الاحتفاظ بفكرة الشخص في هيئة اسمى وأجل ، وهي « الآثار » التي تخلفها الخبرة . ذلك هو النور الذي يعود مع الحياة إلى نفسه ويرمز إليه في النص بالزهرة الذهبية .

بغية استكمال الدراسة ، يجب علينا أن نضيف بضع كلمات عن المثلثات الثمانية الموجودة في « كتاب التغيرات » (آي تشنغ) والمستخدم في النص الذي بين أيدينا . المثلث (تشن Chen) وشكله ≡ ، يمثل الرعد والموقف والحياة التي تتفجر من أعماق الأرض ؛ هو بداية جميع الحركات . المثلث (سن Sun) ، وشكله ≡ ، هو الريح والغابة واللطف ، ويصف جريان طاقات الواقع في هيئة الفكرة . وكما تشيع الريح في جميع الأمكنة ، كذلك يشيع المبدأ الذي يرمز إليه (سن) في الكل ويخلق « التحقيق » ، المثلث (لي Li) ، وشكله ≡ ، هو الشمس والنار والإضاءة والتعلق ؛ يلعب دوراً كبيراً في ديانة النور هذه ؛ يسكن في العيون ، ويرسم الدائرة الواقية ، ويحدث الولادة الجديدة . المثلث (كزون Kun) ، وشكله ≡ ≡ ، هو الأرض والمتلقي (أو القابل) ، وأحد المبدأين الأولين ، أي مبدأ (ين) الذي يتجسد في طاقات الأرض ؛ هو الأرض التي ، عندما تكون حقلاً

محروثاً ، تلتقط حبة السهء وتمنحها الشكل . المثلث (توي) Tui ، وشكله ≡≡≡ ؛
هو البحيرة والضباب والمبتهج ، هو الحال الأخيرة من جانب (ين) ، وهو بالتالي
يعود الى الخريف . المثلث (تشثيان) Ch, ien ، وشكله ≡≡≡ ؛ هو السهء والخالق
والقوي ؛ هو تجسيد مبدأ (يانغ) الذي يخصب (كُؤون) ، المتلقي أو القابل . المثلث
(كُآن) K,an ، وشكله ≡≡≡ ؛ هو الماء والهاوية ، هو ضد (لي) Li ≡≡≡ كما هو
مبين في بينته الخارجية ، يمثل إقليم (الإيروس) ، بينما يرمز (لي) الى (اللوعوس) .
(لي) هو الشمس ؛ (كُآن) القمر . وزواج الشمس والقمر هو السياق السحري
السري الذي يثمر عن ولادة (الصبي) ، الإنسان الجديد . المثلث (كن) Ken
≡≡≡ ، هو الجبل والسكون ؛ رمز التأمل الذي ، اذ يخضع الأشياء الخارجية ،
يهب الحياة للعالم الداخلي . لذلك كان (كن) هو المكن الذي يتلاقى فيه الموت
والحياة ، وتستكمل فيه دائرة الصيرورة .



ترجمة كتاب

طآي تشن هوا تسونغ تشيه
أو

سر الزهرة الذهبية

١ . الواعية السماوية (القلب)

قال المعلم لو- تسو ، ما هو موجود بنفسه يسمى الطريق (الطاو) . لكن الطاو لا اسم له ولا شكل . هو الجوهر الواحد^(١) ، الروح الأولي الواحد . الجوهر والحياة لا يُريان . انهما في نطاق نور السماء . ونور السماء لا يُرى . انه في نطاق العينين . اليوم سأكون مرشدكم وأكشف لكم أولاً عن سر الزهرة الذهبية في الواحد العظيم ، ثم أتولى شرح الباقي بالتفصيل .

الواحد العظيم هو الاصطلاح الدال على ما ليس فوقه شيء . يتكون سر سحر الحياة من تسخير الفعل وصولاً الى اللافعل . يجب ألا تنشأ القفز فوق كل شيء ونختبره رأساً . قضت الحكمة المتقولة الينا أن نتناول بيدنا العمل على الطبيعة البشرية (هسبنغ) ، ونحن اذ نفعل ذلك يهمننا ألا نسلك الطريق الغلط .

الزهرة الذهبية هي النور ، ما لون النور ؟ ان احبنا ليستعمل الزهرة الذهبية بما هي رمز . هي الطاقة الحقيقية في الواحد العظيم المتعالي . وتشير اليها عبارة «أن رصاص اقليم الماء ليس له غير طعم واحد» .

خلقت السماء من خلال الواحد . تلك هي الطاقة الحقيقية في الواحد العظيم . اذا ادرك الإنسان هذا الواحد صار حياً ، وإذا ضيَّعه مات . لكن الإنسان ، حتى ولو عاش في الطاقة (النفس الحيوي) ، لا يرى الطاقة ، تماماً كما يعيش السمك في الماء ولا يراه . يموت الإنسان حين ينقطع عنه نفس الحياة ، تماماً كما يهلك السمك حين يُسلب منه الماء . لقد علّم الناس أهل الخبرة أن يتمسكوا بالأولي ، وأن يحرصوا على الواحد ؛ انه دوران النور والاعتصام بالمرکز . فإذا أولينا هذه الطاقة الحقيقية حمايتنا ، استطعنا إطالة مدة الحياة ، واستطعنا عندئذ تطبيق منهج خلق الجسد الخالد بواسطة «الإذابة والزج» .

(١) - هسبنغ Hsing ، ترجمت في غير مكان بـ «الطبيعة البشرية» (ك ف ب) .

ويتوقف العمل في دوران النور كلياً على حركة الانكفاء الى الخلف حتى تتجمع الأفكار (عمل الرواية السماوية ، القلب السماوي) بعضها الى بعض . والقلب السماوي يقع بين الشمس والقمر (اي ، بين العينيّين) .

يقول «كتاب القلعة الصفراء» : «في نطاق الإنش المربع من البيت الذي مساحته قدم مربعة ، يمكن أن تنتظم الحياة ، البيت ذو القدم المربعة هو الوجه . والإنش المربع في الوجه : ماذا عساه أن يكون غير القلب السماوي ؟ في وسط الإنش المربع تسكن الروعة . وفي القاعة الأرجوانية من مدينة الشب يسكن إله الفراغ الأقصى والحياة . يسميه أتباع كنفوشيوس مركز الفراغ ، ويسميه البوذيون مصطبة الحياة ، ويسميه الطاويون أرض الأسلاف ، أو القلعة الصفراء ، أو الممر المظلم ، أو مكان السماء السابقة . القلب السماوي هو البيت ، والثور رب البيت .

لذلك عندما يدور النور تظهر مجمل طاقات الجسد امام عرشها مثلها الملك المقدس ، بعد أن يكون شيد العاصمة وأرسي قواعد النظام الأساسية ، تتقرب منه جميع الدول بتقديم آيات الولاء والتعظيم ، او مثلها المولى ، عندما يكون هادئاً وساكناً ، يطيع الخدم والجواري أوامره من تلقاء أنفسهم ، ويؤدي كل عمله .

لذلك ما عليك الا ان تدور النور : ذلك هو السرّ الأعظم والأعجب . من اليسير على النور أن يتحرك ، لكن من الصعب أن يتوقف . فإذا دورناه مدة كافية تجتمع ؛ ذلك هو الجسد الروحي الطبيعي ، ويتشكل هذا الروح فيما وراء السموات التسع . انه الحالة التي يقول عنها «كتاب خاتم القلب» : «ساكنات أنت تحلق عند الصباح» .

لتحقيق هذا المبدأ الأساسي لا حاجة بك الى البحث عن طرائق أخرى ، بل ما عليك الا أن تجمع أفكارك عليه . جاء في كتاب «لنغ ين» : «بتجميع الافكار يستطيع المرء أن يطير ويولد في السماء» . والسماء ليست هي السماء الزرقاء الراحية بل هي المكان الذي تولد فيه الجسدانية في بيت المبدع . وإذا ثابر امرؤ على تجميع

أفكاره ، استطاع أن يطوّر جسداً روحياً آخر ، اضافة الى جسده ، بصورة طبيعية تماماً .

الزهرة الذهبية هي أكسير الحياة (تشن - طان ؛ حرفياً ، الكرة الذهبية ، الحبة الذهبية) . كل تغيرات الواعية الروحية تتوقف على القلب . ها هنا سحر خفي ، وإن كان يعمل بدقة بالغة ، بلغ من السهولة مبلغاً نحتاج معه الى أقصى حدود الذكاء والصفاء ، وإلى أقصى حدود الاستغراق والسكينة ، لكي نمسك به . بدون هذه الدرجة العليا من الذكاء والفهم لا نجد سبيلاً الى تطبيق هذا السحر ؛ وبدون هذه القدرة القصوى على الاستغراق والسكينة لا نستطيع أن نمسك به بإحكام .

يبين لنا هذا الجزء أصل الطريق العظيم (الطاو) في العالم . فالقلب السماوي هو جرثومة الطريق العظيم . فإذا استطعت أن تكون هادئاً على وجه الإطلاق ، عندئذ يتجلى القلب السماوي من تلقاء نفسه . وإذا تحرك الشعور وعبر عن نفسه بالدفق السوي (انكفاء الطاقة الى الخلف) ، خلُق الإنسان خلقاً أولياً .

ويقيم هذا المخلوق في مكان حقيقي بين الجبل والولادة ، وعندما تدخل في الولادة العلامة الوحيدة على صيرورة الفرد فرداً ، تنقسم الطبيعة البشرية والحياة الى قسمين . ومنذ ذلك الحين فصاعداً ، اذا لم تتحقق الدرجة القصوى من السكينة ، لم ترَ الطبيعة البشرية والحياة احداهما الاخرى ابداً .

لذلك يقال أن في خطة الأخير على وأن ينطوي الواحد العظيم على طاقة حقيقية ، وحبّة وروح ، وأنيمه وأنيمه . فإذا سكنت الأفكار سكوتاً مطلقاً بحيث تصبح رؤية القلب السماوي أمراً ممكناً ، استطاع العقل الروحي أن يبلغ الأصل بدون عون من سواء . هذه الطبيعة البشرية تعيش حقاً في مكان حقيقي ، لكن شعاع النور يسكن في العينين . لذلك يعلمنا السيد دوران النور حتى يمكننا بلوغ الطبيعة البشرية الحقيقية . والطبيعة البشرية الحقيقية هي الروح الأولية . وما الروح الأولية الا الطبيعة البشرية والحياة ، انها الطاقة الأولية اذا قبلنا ما فيها من حقيقي . وما الطريق العظيم الا هذا الشيء .

كذلك ان المعلم حريص على ألا يفضل الناس الطريق الذي يؤدي الى اللافعل غير الواعي انطلاقاً من الفعل الواعي . ولذلك نجده يقول أن سحر إكسير الحياة يسخر الفعل الواعي لكي

تصل به الى اللافعال غير الواعي . ويقوم الفعل الواعي على تدوير النور بواسطة التضكير لكي يتجلى للعيان امتناق السماء . ثم اذا ولدت الحبة الصحيحة ، واتبعنا المنهج الصحيح في اذابتها ومزجها ، وخلقتنا اكسير الحياة بهذه الطريقة ، عندئذ نجتاز الممر ويتخلق الجنين الذي لا ينمو الا بالتدفة والتغذية والتحميم والتفسيل . وبذا تنتقل الى ميدان اللافعال غير الواعي . وتحتاج هذه الفترة النارية الى عام بأكمله حتى يولد الجنين ويطرح عنه القواقع ويخرج من العالم العادي الى العالم القدسي .

ان المنهج غاية في البساطة واليسر . لكن فيه كثيراً من التحولات والتغيرات حتى لقد قيل ان الانسان لا يصل الى هناك بقفزة واحدة . ومن بنشد الحياة الأبدية ، فعليه أن يجد المكان الذي انطلقت منه الطبيعة البشرية والحياة في الأصل .

٢ . الروح الأولي والروح الواعي

قال المعلم لو- تسو : بالمقارنة مع السماء والأرض ، الإنسان مثل ذبابة ايار . لكن السماء والأرض ، بالمقارنة مع الطريق العظيم ، مثل الفقاعة او الظل . ولا يقهر الزمان والمكان الا الروح الأولي والطبيعة الحقيقية .

ان طاقة الحبة ، كالسما والأرض ، طاقة زائلة ؛ لكن الروح الأولي موقعه فيما وراء الفروق القطبية* . هو ذا المكان الذي تستمد منه السماء والأرض وجودهما . عندما يتعلم التلاميذ كيف يسكنون بالروح الأولي يتغلبون على الضدين القطبيين ، النور والظلام ، ولا يمتكون طويلاً في العوالم الثلاثة^(١) . لكن ليس كمن شاهد وجه الطبيعة البشرية الأصلي بقادر على فعل هذا .

عندما يخرج الإنسان من الرحم ، يسكن الروح الأولي في الإنش المربع (بين العينين) ، ويسكن الروح الواعي في القلب الذي هو أدنى . لهذا القلب اللحمي السفلي هيئة الإجاصة الكبيرة : يغطيه جناحان هما الرئتان ، ويسانده الكبد ، وتقوم

(*) الاقطاب التضادة - المترجم -

(١) - السماء والأرض والجحيم .

الأنيمة ، وهذه تلازم الوعي وتؤثر فيه . اما الوعي فيعتمد في نشأته على الأنيمة ، وهي مؤنثة (ين) ، وهي مادة الوعي . وما دام الوعي لا ينقطع ، يظل يولد (الأفكار- المترجم-) جيلاً بعد جيل ، ولا تنقطع كذلك التغيرات التي تطرأ على هيئة الأنيمة ، ولا التحولات في المادة .

لكن ، الى جانب هذه الثلاثة ، يوجد أيضاً الأنيم الذي تقبع فيه الروح . والأنيم يسكن في العينين نهاراً ويبصر ، ويبست في الكبد ليلاً ويحلم .. وتنشأ الأحلام عن تجوال الروح في جميع أقطار السموات التسع والأرضين التسع . ومن يكن في الظلام ، وفي مزاج مكتئب عند الاستيقاظ ، مقيداً الى صورته الجسدانية ، يكن أيضاً مقيداً الى الأنيمة . لذلك يُصار الى تركيز الأنيم وشدّ عزيمته بواسطة دَوْران النور حتى تتماسك الروح ، وتخضع الأنيمة ، وينقطع الوعي ويتوقف . بغية اجتناب العالم ، سار القدماء على منهج يقوم على تذويب نُقايات العالم تذويماً تاماً حتى يمكنهم الرجوع الى المبدع خالصين من الشوائب . وليس هذا المنهج غير اخضاع الأنيمة وتمكين الأنيم وتقويته . وما دَوْران النور غير الأداة السحرية لتبديد الظلام والسيطرة على الأنيمة . ثم أن العمل ، وإن كان لا يرمي الى استعادة المبدع ، بل اقتصر على اعتماد الوسائل السحرية لتدوير النور ، كان النور بحد ذاته هو المبدع . فإذا اتبعنا هذا المنهج ، توفّر الكثير من ماء الحبة من تلقاء نفسه ، واتّقدت نار الرياح ، وتصلّبت وتجمّعت أرض الفكرة . بذلك تنضج الثمرة المقدسة ، وي طرح الجُعلُ بيضته ، وفي البيضة تنمو الحياة نتيجة للجهد غير المنقسم للتركيز الروحي . فإذا كان الجنين يستطيع ان ينمو في السماء ، وأن يطرح عنه قواقه ، فلماذا لا يستطيع المكان الذي يسكن فيه قلبنا السهوي أن يخلق جسداً لو ركّزنا عليه الروح .

عندما تنزل الطبيعة البشرية الحقيقية الفعالة الواحدة (اللوغوس متحدةً بالحياة) في بيت المبدع ، تنقسم الى أنيم وأنيمة . يحتل الأنيم القلب السهوي ، لأنه من طبيعة النور ، وقوة النورية والطهر . وهو الذي تلقيناه من الفراغ العظيم الذي يتماثل شكلاً مع البداية الأولية . أما الأنيمة فتتقسم مع الظلام طبيعته ؛ فهي قوة الثقيل والكثيف ، ومقيدة الى القلب اللحمي الجسداني . الأنيم يحب الحياة ،

坐禪圖

當空晏坐
太乙之觀也
孔丁之圖也
龍虎之止

坐久忘所知忽覺月在地
冷冷天風來凜然到肝肺
俯視一泓水澄澄無物蔽
中有纖絲透點點自相映

無事此靜坐一日如兩日
若活七十年便是百四十
靜坐少思寡欲其心養氣有神
此是修真訣法靜可以養神



الرسـم رقـم (١) ويمثل المرحلة الأولى من التأمل وهي جمع النور.

والأنيمة تطلب الموت . جميع الشهوات الحسية والدوافع الغضبية هي من آثار الأنيمة ، فهي الروح الواعية التي تتغذى بالدم بعد الموت ، لكنها في أثناء الحياة تكون في منتهى الشقاء . المظلم يعود الى الظلام ، كما تنجذب الاشياء بعضها الى بعض كل بحسب نوعه . لكن التلميذ يعرف كيف يستقطر الأنيمة المظلمة تماماً حتى تتحول الى نور صاف (يانغ)^(١) .

في هذا الجزء وصف للدور الذي يلعبه الروح الأولي والروح الواعي في خلق جسد الإنسان . يقول المعلم ، حياة الإنسان كحياة ذبابة أيار : ليس غير الطبيعة البشرية الحقيقية الآنية من الروح الأولي ما يستطيع ان يتجاوز دورة السماء والأرض وتقلبات الزمان . وتنطلق الطبيعة البشرية الحقيقية مما ليس له قطبية (الذي لا نهاية له) ، وتتلقى طاقة القطبية الاولى (الذي له نهاية) التي تضم بواسطتها الى نفسها الجوهر الحقيقي للسماء والأرض ، وتصبح الروح الواعي . وهو ، كروح أولي ، يتلقى طبيعته البشرية من أب وأم . هذا الروح الأولي لا واعية له ولا علم ، لكنه قادر على تنظيم السياقات التكوينية للجسد . أما الروح الواعي فبين وظاهر جداً ، وهو يستطيع الا يتوقف عن التكيف . هو حاكم القلب البشري . وما دام باقياً في الجسد فهو الأنيم ، لكنه بعد أن يغادر الجسد يصبح روحاً . وفي الوقت الذي يدخل فيه الجسد الى حيز الوجود ، يكون الروح الأولي لم يتخلّى بعدُ جنيناً يتجسد فيه . يتجمع في «الواحد» الطليق غير المستقطب .

يجب الروح الأولي السكون ، والروح الواعي يجب الحركة . وهو في حركته يبقى مقيداً بالعواطف والشهوات ، بيدد الحبة الأولية في الليل والنهار حتى تُستنفد طاقة الروح الأولي كليةً . عندئذ يغادر الروح الواعي القوقعة .

من رجحت كفة اعماله الخيرة ، كانت له طاقة روح صافية وجليّة إذا حَضَره الموت ، وخرجت روحه من المنافذ العليا المؤلفة من الفم والأنف ، وارتفعت الطاقة الخفيفة والنقية الى الاعلى وعامت في السماء وأصبحت جَنِيّ الظل أو روح الظل ذا الحضور الخماسي . لكن إن كان الروح الأولي ، في أثناء الحياة ، مسخراً من الروح الواعي للجنش والحمق والشهوات وارتكاب الآثام ، كانت الروح في

(١) - المراد بالنور هنا مبدأ عالمي هو القطب الموجب لا الغور الذي يضيء .

لحظة الموت كدرة عكرة وخرجت الروح الواعية هي والنفس من المنافذ السفلى لباب البطن . ذلك بأن طاقة الروح ان كانت عكرة وغير نظيفة ، تجمعت باتجاه الأسفل وغاصت في الجحيم وغدت شيطانا . عندئذ لا يفقد الروح الأولي طبيعته وحسب ، وإنما تتدنى بذلك القوة والحكمة اللتان تتصف بهما الطبيعة البشرية الحقيقية . ولذلك يقول المعلم اذا تحركت فليس هذا بخير .

واذا أراد امرؤ أن يحافظ على الروح الأولي ، فعليه أن يبادر الى اخضاع الروح المدرك . وطريقة اخضاعه تتم بدوران النور . فإذا دار النور نسي الجسد والقلب كليهما . ينبغي للقلب أن يموت ، وللروح أن تحيا . وعندما تحيا الروح ، يبدأ النفس يدور دورانا عجيبا . ان هذا ما يدعوه المعلم بالخبر المحض^(١) . ثم ينبغي ان يتاح للروح الغوص في البطن (الضفيرة الشمسية) ، فتتزوج الطاقة والروح ، ويتحد الروح بالطاقة ويتجمع . ان هذا منهج بداية العمل .

في الوقت المناسب ، يتحول الروح الأولي القاطن في الحياة الى طاقة حقيقية . في هذا الوقت ، يجب اعتناء طريقة بخية تقطيره حتى يصير «أكسير الحياة» . وهذا هو منهج العمل المركز . وعندما تتكون ذرة أكسير الحياة ، يتكون الجنين المقدس ، وعندئذ يجب أن يتجه العمل الى تدفئة الجنين وتغذيته . وهذا هو منهج الإتمام .

وعندما تتخلق الطاقة - الجسد لدى الطفل تخلقاً تاماً ، يجب أن يتجه العمل بحيث يتاح للجنين ان يولد ويعود الى الفراغ . ذلك هو منهج نهاية العمل .

من أقدم الأزمنة الى اليوم ، لم يكن هذا بالكلام الفارغ ، بل أثر من الطريق الأعظم في المنهج الصحيح الذي يهدف الى تحقيق حياة أبدية وروح خالدة وإنسان قُدسي .

لكن اذا أوفى العمل على غايته ، يصبح كل شيء ينسب الى مبدأ الظلام مستغرقاً كلياً ، ويولد الجسد نوراً محضاً ، وعندما يتحول الروح الواعي الى روح أولي ، نستطيع القول عندئذ انه بلغ قدرة على التحول لا نهاية لها ، ويعد أن يخرج من ذروة الولادات يصل الى الجنى الذهبي ذي الحضور

(١) - المراحل الأربع من الولادة الجديدة متميزة هنا . الولادة الجديدة (من الماء والروح) هي تطوير للجسد الروحاني في قلب الجسد اللحمي المالك . وفي هذا علاقة ظاهرة بفكر بولس ويوحنا .

السداسي^(١) . وإذا نحن لم نعتد هذا المنهج الارتقائي ، فكيف نستطيع التخلص من طريق الحياة والموت ؟ .

٣ . دوران النور وحماية المركز

قال المعلم لو- تسي ، منذ متى كان اكتشاف تعبير دَوْران النور ؟ لقد كشف عنه رجال بداية الصورة الحقيقيون ، (كُوان ين - هُسي) .^(٢) وعندما اتخذ النور حركته على هيئة دائرية تجمعت جميع طاقات السماء والأرض ، والنور والظلام . وهذا ما اضطلع عليه اسمُ «التفكير الشبيه بالبزرة» ، أو تطهير الطاقة ، أو تطهير الفكرة . وعندما يبدأ الإنسان ممارسة هذا السحر ، يكون الأمر كما لو أن هناك ، في وسط الوجود ، لا وجوداً . وعندما يصبح العمل ناجزاً مع الأيام ، ويكون جسد فيما وراء الجسد ، يكون الأمر كما لو أن هناك ، في وسط اللاوجود ، وجوداً . ولا يكون النور أصيلاً الا بعد انقضاء مائة يوم من العمل المركز . وعندئذ يصبح نار الروح . بعد مائة يوم تنشأ في قلب النور نقطة من قطب نور حقيقي (يانغ) . ثم تنشأ فجأة دُرّة الحبة . والأمر أشبه ما يكون برجل وامرأة تجامعا ونشأ حَبْلٌ عن جماعهما . وما على المرء حينئذ الا ان يتحلّى بالهدوء التام ويترقّب . دَوْران النور هو حقبة النار .

وسط التحول الأولي ، يكون اشعاع النور (يانغ - كوانغ) هو الشيء الحاسم ، في الطبيعة هو الشمس ، وفي الإنسان هو العين . ان اشعاع الواعية الروحية وتبددها اثما يحدث بصفة رئيسية بواسطة هذه الطاقة عندما تتجه الى الخارج (تتدفق

(١) - الروح ذو الحضور الخماسي ، الذي يتحول اليه الإنسان عندما يموت بعد ان كان جاهد ليعمل صالحاً لكن عن غير دراية ، محدود بإقليم الحواس الخمس ؛ ولذلك يظل محبوساً على هذه الأرض . الولادة الثانية تنقله الى المملكة الروحية السادسة .

(٢) - أحد تلاميذ لاو- تسي (بحسب إحدى الأساطير هـ . و) .

الى الأسفل). لذلك يتوقف «طريق الزهرة الذهبية» كلياً على توجه الدفق الى الخلف .

يقف قلب إنسان تحت علامة النار^(١) . ألسنة اللهب تندفع الى الأعلى . عندما تنظر العينان كلتاهما الى أشياء نالِم يكون ذلك في رؤية متجهة الى الخارج . اما حين يغمض الإنسان عينيه ، عاكساً رؤيته ، متجاً بها الى الداخل ، ناظراً الى حجرة السلف ، فهذا هو توجّه الدفق الى الخلف . اما طاقة الكليتين تحت علامة الماء . عندما تتحرك الشهوات وتتجه الى الخارج ، يجري الماء الى الأسفل فيخلق الآد . والشهوات ، في لحظة انطلاقتها ، اذا لم يُسمع لها بالدفق الى الخارج ، بل انكفأت الى الخلف بواسطة طاقة التفكير بحيث تسرب في بوتقة «المبدع» ، عندئذٍ تجدد القلب والجسد وتغذيها تلك هو أيضاً توجّه الدفق الى الخلف . لذلك يقال ان «طريق اكسير الحياة» يتوقف كلياً على تدفق الى الخلف .

ان دوران النور ليس هو دوران زهرة حبة جسد الإنسان وحسب ، وإنما هو دوران الطاقات الحقيقية المبدعة الخلاقة . انه ليس بالتخيّل الطليق الآني Fantasy ، بل هو استفاد بورة (هجمات الروح) جميع الدهور . لذلك كانت مدة نفس واحد (من دوران البر - المترجم -) تعني سنة واحدة في الحساب البشري ومائة ٥٠٠ بالقياس الى الليل الطويل من الممرات التسعة (التقمصات) .

بعد أن بُلِّف الإنسان وراءه صوت التكوّن الفردي^(١) ، يولد الى الخارج بحسب الظروف ، وإلى أن يبلغ سنّ الشيخوخة لا ينظر الى الخلف أبداً . عندئذٍ

(١) - القطبان السيان يتناظران هنا احدهما مع الآخر . ويمثلان بالوغوس (القلب ، الواعية) ، ويندرجان في مكن النار لا ، وبالايروس (الكليتان ، الجنس) ، وبثلث الماء (كُنْان) . الإنسان الطبيعي ، يدع كما هاتين الطاقتين تعمل الى الخارج (الفكر وسياق التناسل) ، وبذلك تجريان الى الخارج ، وتنفّذاً . والأرب من يعكس جريانهما الى الداخل ويضمهما بعضهما الى بعض ، وبذلك ينضمهما بعضهما بعض ويتج عن ذلك حياة للروح نشطة وقوية بالتالي .

(١) - الحرف «b» الذي نترجمه هنا بالتكون الفردي individuation يكتب رمزاً للطاقة في داخل «سور» . وبذلك يعني تمام الشكل المنطبع في الجوهر الفرد . انه انفصال وحدة الطاقة وتنميتها =

تستنفد طاقة النور نفسها وتنسرب الى الخارج ، وهذا ما يجلب الظلمات التسع (من التقمصات) الى العالم . وقد جاء في كتاب Leng Yen^(٢) : «تركيز الفكر يستطيع الإنسان أن يطير ؛ بتركيز الشهوات ، يسقط» . عندما لا يعطي التلميذ الا القليل من الاعتناء لأفكاره ، والكثير من الاهتمام لشهواته ، فلنما يسلك السبيل الى الانغماس فيها . ان الحدس الصحيح لا ينشأ الا من طريق التفكير والسكون : ذلك لأن الدفق الى الخلف منهج ضروري .

جاء في كتاب «المراسلات السرية»^(١) : «الاعتناق في العين» . وفي الأسئلة البسيطة للحاكم الأصفر^(٢) : «أزهار حبة جسد الإنسان يجب أن تتركز الى الأعلى في الفراغ ، هذه الجملة تتضمن الخلود ، وتتضمن كذلك السيطرة على العالم . وهذا هو الهدف المشترك لجميع الأديان .

هذا النور ليس في الجسد وحده ، ولا هو خارج الإنسان وحسب . فالجبال والأنهار ، وكذا الأرض العظيمة ، انما ينيرها الشمس والقمر ؛ كل هذا هو هذا النور . ولذلك لم يكن وجوده في الجسد وحده . فالفهم والوضوح ، والإدراك والتطور ، وجميع حركات (الروح) هي أيضاً هذا النور ؛ ولذلك لم يكن هو مجرد شيء خارج الجسد . ان زهرة نور السماء والأرض تمثل آلاف الأمكنة جميعاً . لكن زهرة نور جسد الإنسان تمر من خلال السماء وتغطي الأرض أيضاً . ولذلك ما إن يبدأ النور دورانه حتى تدور معه السماء والأرض والجبال والأنهار في نفس الوقت .

بطاقات الحبة المفضية الى التجسد ، يُنظر الى السياق على أنه متصل بالصوت . تجريبياً ، يتصادف مع الحبل . ومنذ ذلك الحين يحدث «تطور» و«فتح» يتقدمان باستمرار ، الى أن تقوم الولادة بإخراج الإنسان الى النور ، ومنذ ذلك الحين يتوالى التقدم تلقائياً الى أن تُستنفد الطاقة ويُعقب ذلك الموت .

(٢) - السورام غاما سوترا ، وهي سوترا بوذية .
(١) - ين فو- تشنغ ، عمل طاوي كلاسيكي (من أجل ترجمة انكليزية له انظر هنري بلفور ، نصوص طاوية ، لندن وشانغهاي ، ص ص ٤٩ - ٦٢ . هـ . و) .

(٢) - هوانغ - تي ناي - تشنغ سو- ون ، عمل طاوي في زمن متأخر يُفهم منه أن صاحبه هو الحاكم الأسطوري هوانغ تي .

ان تتجمع زهرة حبة الجسد البشري الى الأعلى في العيين ، إن هذا هو المفتاح العظيم للجسد البشري . ايها الأولاد ، حذار ! إنكم إن غفلتم عن التأمل يوماً واحداً ، جرى هذا النور الى الخارج ، ومن يدري إلى أين ؟ وإنكم إن تأملتم مدة ربع ساعة فقط ، تخلصتم من عشرة آلاف دهر ومن ألف ولادة . كل المناهج تفضي الى السكون . هذا السحر العجيب لا يُسَبَّرُ له غُور .

لكن عندما تبدأ الممارسة ، على المرء أن يغدَّ السير من الظاهر الى الباطن ، ومن الكثيف الى اللطيف . كل شيء يتوقف على ألا يكون ثمة انقطاع . يجب أن تكون البداية والنهاية في الممارسة شيئاً واحداً . وبينها لحظات باردة ودافئة . وهذا غني عن البيان . لكن الهدف يجب أن يصل بنا الى رحابة السماء وإلى اعماق المحيط ، حتى تبدو جميع المناهج غايةً في اليسر وأمرأً مسلماً به . وعندئذٍ فقط نسيطر عليه .

لقد أورث جميع القديسين احدهم الى الآخر هذه الحقيقة : لا شيء ممكن بلا تفكير (فان - تشاو ، التدبر) reflection . عندما يقول كنغوشويوس : «الإدراك يصل بالمرء الى الهدف ؛ او عندما يدعوه البوذا بـ «رؤية القلب» ؛ او يقول لاتوسي : «رؤية الداخلية» ، فإنما يقصدون نفس الشيء ،

يستطيع كل أحد أن يتكلم عن التدبر ، لكنه لا يستطيع أن يسيطر عليه إن كان لا يدري معنى الكلمة . ان ما عليه أن يعكسه بواسطة التدبر هو قلبه الواعي لذاته ، الذي يجب أن يتجه نحو النقطة التي لا يكون فيها الروح المصور قد تبدى بعد . في حدود جُرمنا ذي الأقدام الست يجب علينا أن نسعى جاهدين للوصول الى الصورة التي كانت موجودة قبل خلق السموات والأرض . فإذا جلس الناس اليوم ولم يتأملوا غير ساعة أو ساعتين ، غير ناظرين الا الى أنيائهم ، فكيف يمكن أن ينتج شيء عن ذلك ؟

لذا ان أسَّس البوذية والطاوية قد علَّمنا ان على المرء أن ينظر الى أرنبة أنفه . لكنها لم يقصدا ان عليه أن يشدَّ أفكاره الى أرنبة الأنف . ولا قصدا أن تتجمع

مركز متوسط الأحوال . التسميتان مُسمًى واحد . إنه لا يعني بالضرورة متوسط الرأس . انما الأمر أن يركّز أحدنا تفكيره على النقطة التي تقع بين العينين تماماً . عندئذ يجري كل شيء على ما يُرام . النور شيء متحول الى أقصى حد . وعندما يركّز أحدنا تفكيره على النقطة الوسطى بين العينين ، يسري النور من تلقاء نفسه . ليس من الضروري أن يتّجه الانتباه الى القلعة المركزية بخاصة . في هذه الكلمات كل شيء .

«المركز في وسط الأحوال» تعبير دقيق جداً ، المركز كُلي الحضور . كل شيء فداخل فيه ؛ انه متصل بإطلاق سياق الخلق كله . الحال هو المدخل . الحال ، أي تحقيق هذا الحال ، يصنع البداية ، لكنه لا ينتج الباقي بضرورة لا بد منها . معنى هاتين الكلمتين متسرّب ولطيف .

ان تثبيت التفكير أمر لا غنى عنه ، يضمن التعجيل بالتنوير . كل ما على المرء ان يفعل هو ألا يبقى جالساً في جمود اذا جاءت الأفكار الدنيوية ، بل عليه أن يتفحص اين مكان الفكرة ، وأين بدأت ، والى أين تذهب . لا شيء يمكن أن نجنّيه من ترجية المزيد من الأفكار . يجب على المرء أن يقصر همه على معرفة من أين نشأت الفكرة ، وألا يبحث عما وراء نقطة المنشأ ؛ لأن البحث عن القلب (الواعية ، الوصول الى ما وراء الواعية بالواعية) أمر غير ممكن . ان ما نريده هو أن نجتمع أحوال القلب على الراحة ، أي التفكير الصحيح . وما يناقضه هو التفكير الزائف . ان هذا لا يفضي بنا الى غاية ، عندما يظل جريان الأفكار يتسع أكثر ، يجب أن نتوقف ونبدأ التفكير . فلتتفكر ثم لنعد الى التثبيت ثانية . ذلك هو المنهج المزدوج للتعجيل بالتنوير . ان معناه دوران النور . الدوران هو التثبيت ، النور هو التفكير . التثبيت بدون تفكر هو دوران بلا نور . التفكير بلا تثبيت هو نور بلا دوران . خذوا علماً بذلك !

المعنى العام لهذا الجزء هو ان حماية المركز أمر ضروري لدوران النور . وقد عالج الجزء الأخير أهمية الجسد البشري وأنه ثروة ثمينة جداً عندما يكون الروح الأولي هو السائد . لكن عندما يكون

مسخراً للروح الواعي ، ينتج عن هذا الأخير أن يتفرق الروح الأولي ويتبدد في الليل والنهار . وعندما يشتد ارهاق الجسد يموت . وهنا يأتي المنهج الذي نصف به الروح الواعي بالخضوع والروح الأولي بالحِمي ؛ وهذا مستحيل اذا لم نبدأ تدوير النور . وان الأمر ليشبه كما لو أننا نريد تشييد منزل رائع ؛ يجب علينا أولاً أن نرسي قواعد متينة . عندما يكون الأساس متيناً ، يمكننا عندئذٍ مواصلة العمل ووضع أساس الجدران عميقاً وصلباً ، ثم يصار بعدئذٍ الى رفع الأعمدة وإقامة الجدران . اما اذا لم نضع الأساس بهذه الطريقة فكيف نستطيع أن نمنح تشييد المنزل ؟ ان منهج تهذيب الحياة هو بالضبط مثل هذا . يمكن مقارنة دوران النور بأساس المبني . عندما يكون الأساس راسخاً ، سرعان ما يُشاد عليه . حماية المتوسط الأصفر ، ان هذا هو عمل البناء . ولذلك يوضح المعلم بصفة خاصة المنهج الذي نستطيع به أن نباشر تهذيب الحياة ، ويأمر الناس النظر بكلتا العينين الى أرنبة الأنف ، وخفض الأجناف ، والنظر الى الداخل ، والجلوس في سكون والجسم معتدل ، وتثبيت القلب على المركز في وسط الأحوال .

ان ابقاء الأفكار على المسافة بين العينين هو ما يسمح للنور بأن يشيع . بناء على ذلك ، تتبلور الروح وتدخل الى المركز في وسط الأحوال . المركز الذي في وسط الأحوال هو ميدان الأكسير الأسفل ، مكان الطاقة (الضغيرة الشمسية) .

ولقد أشار المعلم الى هذا من طرف خفي عندما قال انه في بداية الرياضة يجب على المرء أن يجلس في حجرة هادئة ، وأن يكون جسمه كخشبة يابسة وقلبه كرماد بارد . وعليه أن يخفّض جفنيه ، ثم ينظر الى الداخل ، ويظهر قلبه ، ويفسل أفكاره ، ويوقف مسرّاته ، ويحفظ الحبة . اجلس كل يوم للتأمل وساقاك متصالبتان . وليتوقّف النور في عينيك ، ولتجمد حاسة السمع ، ولتنقصّ حاسة الذوق ؛ أي يجب أن يستند اللسان الى سقف الفم ، وليكن التنفس بواسطة الأنف إيقاعياً ، والأفكار ثابتة على الباب المظلم .

وفي بادئ الأمر ، اذا لم نستطع أن نجعل التنفس إيقاعياً فهناك خوف من صعوبة في التنفس ، بسبب التوقف . وعندما يخفّض المرء عينيه ، عليه عندئذٍ أن يتخذ مقياساً نقطة على جسر الأنف تقع على مسافة أقل من انش تحت نقطة تقاطع خط النظر ، حيث يوجد نتوء صغير على الأنف . ثم يأخذ في جمع أفكاره ، الأذنان تجمعلان التنفس إيقاعياً ، الجسد والقلب في راحة وانسجام . يجب أن يشع نور العينين هادئاً ، ويجب ألا يتطرّق نعاس او غفلة مدة طويلة . العينان لا تنظران الى الأمام ، بل تخفضان جفنيهما وتثيران ما بالداخل . تشعان على هذا المكان . والفم لا يتكلم ولا يضحك . وعلى المرء أن يُطبّق شفثيه ويتنفس الى الداخل . والتنفس يكون في هذا المكان . الأنف لا يشم رائحة .

嬰兒現形圖

此時丹熱更須慈母惜嬰兒

氣穴法名無盡藏

藏也於寢寢包空

我問空中維氏子

龜云是你主人翁

夫暗喻之真
孕結胎之干
傳其精交蓋
特泄其氣有
其神隨如大
小無得其真

潛龍今已化龍

聖現神通不可窮

一朝跳出珠光外

一身直到紫微宮

衍在生時

施續守雖

維續若亦

俗氣在茲

神水清涼

純潔根株

內外無塵

長養靈顯



他日雲飛方見真人朝上帝

الرسم رقم (٢) ويمثل المرحلة الثانية من التأمل : أصل الكائن الجديد في مكان الطاقة

والشَّم يكون في هذا المكان . الأذن لا تسمع شيئاً من الخارج . والسمع يكون في هذا المكان . القلب كله يراغب ما بالداخل . ومراقبته تكون في هذه المكان . الأفكار لا تشرذم الى الخارج ؛ الأفكار الصحيحة لها ديمومتها في ذاتها . اذا دامت الأفكار دامت الحية . واذا دامت الحية دامت الطاقة ؛ واذا دامت الطاقة دامت الروح . الروح هي الفكرة ، والفكرة هي القلب ، والقلب هو النار ، والنار هي الأكسير . وعندما ينظر المرء الى ما بالداخل بهذه الطريقة ، لن تنفذ عجائب افتتاح ابواب السماء وانغلاقها . لكن الأسرار العميقة لا يمكن أن تحدث بدون إيقاعية التنفس .

إذا بدأ التلميذ ولم يستطع أن يستحوذ على أفكاره في المكان الذي يقع بين العينين ، اذا فتح عينيه ولم تمكنه طاقة القلب من رؤية فراغ الطاقة ، فقد يكون السبب هو ارتفاع التنفس وصرعته زيادة عما ينبغي ، مما ينشأ عنه ضرور أخرى ؛ لأن القلب والجسد ظلًا منشغلين في محاولة إحكام السد على تفجر الطاقة والتنفس السريع .

اما اذا ظلت الأفكار عالقة عند العينين فقط ، ولم تتجَمع الروح في الضفيرة الشمسية (المركز الذي في وسط الأحوال) ، يكون الأمر كما لو أن امرأة قد صعدت الى القاعة ولمَّا يدخل الحجره الجوانية عندئذ لا تنقد نار الروح ، وتظل الطاقة باردة ، ولا تسفر الثمرة الحقيقية عن نفسها .

لذلك يتخوف المعلم أن يبعد الناس ، في مجاهداتهم ، الى تثبيت أفكارهم فقط على المكان الذي على الأنف ، ولا يفكرون في تثبيت أفكارهم على مكان الطاقة ؛ وهذا ما يفسر لنا لماذا استعمل تشبيه المعيار والشاقول . انما يستخدم المعيار الشاقول لكي يرى إن كان الحائط عمودياً أو مائلاً ، ولهذا يتخذ الحيط دليلاً . وبعد أن يعين الاتجاه ، يصير بوسعه أن يبدأ العمل . لكنه عندئذ يعمل على الحائط لا على الشاقول . هذا واضح . من هذا نرى أن تثبيت الأفكار بين العينين لا يعني الا ما يعنيه الشاقول للمعيار . المعلم ما يفتأ يشير الى هذا لأنه يخشى الا نفهم مقصوده . لكنه يخشى ، حتى ولو فهم التلاميذ طريقة العمل ، أن ينقطعوا عن العمل ، ولذلك يقول مراراً : لا يكون النور أصيلاً الا بعد مائة يوم من العمل الدؤوب ، عندئذ فقط يستطيع أحدنا ان يبدأ العمل بنار الروح ، واذا مضينا في ذلك على نحو متجمع ، ينمو في النور بعد مائة يوم غواً عفواً نقطة من النور المبدع الاصيل (يانغ) . يجب على التلاميذ أن يفحصوا هذا بقلوب مخلصه .



٤ . دوران النور وإيقاعية التنفس

قال المعلم لو- تسو ، يجب أن يُنفَّذ القرار بقلب متجمّع ، وبدون سعي الى الفوز ؛ فالفوز يأتي من تلقاء ذاته بعد ذلك . في الفترة الأولى من الانطلاق . تصادفنا آفتان بصفة رئيسية هما الكسل والغفلة . وهاتان الآفتان يمكن تصحيحهما . يجب ألا ينخرط القلب في التنفس زيادة عما ينبغي . إنما يأتي التنفس من القلب . وما يخرج من القلب هو النفس . وما ان يحتاج القلب ، حتى تنمو طاقة النفس . وما طاقة النفس إلا فعالية محوِّلة عن القلب . عندما تُعَمَّن أفكارنا في السرعة تتحول ، من غير أن ندري ، الى تَحَيُّلات طليقة Fantasies تكون مصحوبة بالشهيق دائماً ، لأن الشهيق والزفير مرتبط بعضه ببعض ارتباط الصوت والصدى . اننا ، يومياً ، نأخذ عدداً لا يحصى من الانفاس ، وبذلك يكون لنا عدد يساويها من التحيّلات الطليقة . بذلك يتلاشى الجلاء عن الروح ، مثلما تَبَيَّسُ الحطب ويموت الرماد .

هكذا ، إذن ، هل يجب ألا يكون في ذهن الانسان تَحَيُّلات ؟ الإنسان لا يمكنه أن يكون بلا تَحَيُّلات . هل يجب على الإنسان الا يتنفس ؟ لا يستطيع الانسان أن يستغني عن التنفس . خير طريقة أن نصنع للداء الدواء . بما أن القلب والنفس يعتمد كل منهما على الآخر ، يجب أن يتحد دَوْران النور مع إيقاع التنفس . لذلك كان نور الأذن ضرورة قصوى . وكما يوجد نور للعين كذلك يوجد نور للأذن . نور العين هو النور المتكون من الشمس والقمر في الخارج . ونور الأذن هو الحبة المتكونة من الشمس والقمر في الداخل ، وبذا تكون الحبة هي النور في شكل متجمّد . كلاهما له نفس الأصل ولا يختلفان الا بالاسم . ولذلك كان الفهم (الأذن) والوضوح (العين) هما نفس النور الفاعل .

عندما يجلس المرء خافضاً جفنيه ، يتوسَّل الى تثبيت الشاقل بالعينين ثم يقوم بتحويل النور الى الأسفل . فإذا لم يوفق في تحويل النور الى الأسفل ، عمد الى توجيه

القلب نحو الإنصات الى التنفس . يجب الا يكون في مقدوره ان يسمع طلوع النَّفس ودخوله بأذنه . فما يسمعه هو ما لا نغمة له . وحالما يصير للنفس نغمة ، يحنن نفسه ونسطح (= يصير سطحياً) ، ولا يشيع في الخلاء . عندئذ عليه أن يجعل القلب خفيفاً وضئيلاً . فكلما زادت خفته ، زادت ضالته ؛ وكلما زادت ضالته ، زاد سكونه . وما هو إلا أن يسكن ويتوقف . عندئذ يتبدى النفس الصحيح ، وتقبل هيئة القلب الى الوعي . فإذا كان القلب خفيفاً ، كان النفس كذلك خفيفاً ، كان النفس كذلك خفيفاً ، لأن حركة القلب تؤثر في طاقة التنفس . وإذا كان النفس خفيفاً ، كان القلب كذلك خفيفاً ، لأن كل حركة من طاقة التنفس تؤثر في القلب . ولكي نستطيع أن نثبت القلب ، علينا أن نباشر العناية بطاقة التنفس . لا يمكن أن يحدث تأثير في القلب مباشرة . لذلك كان استعمال طاقة التنفس بمثابة المقبض ، وهذا ما يُسمى بالمحافظة على طاقة التنفس المتجمعة .

أيها الأولاد ، ألا تعرفون طبيعة الحركة ؟ يمكن ان تحدث الحركة بوسائل خارجية . انها ليست غير اسم آخر للسيطرة . نستطيع أن نحرك القلب بمجرد الركض . لكن ، ألا يجب علينا أن نكون قادرين على إراحته بالسكينة المجتمعة ؟ الأولياء العظام الذين عرفوا كيف يؤثر القلب وطاقة النَّفس كل منهما في الآخر ابتكروا طريقة سهلة لمساعدة الأجيال القادمة .

جاء في كتاب الأكسير^(١) : «الدجاجة تحضن البيض لأن قلبها ينصت دائماً» . هذه وصفة سحرية هامة . انما تستطيع الدجاجة ان تحضن البيض بواسطة طاقة الحرارة . لكن طاقة الحرارة لا تسخن غير القشرة ؛ فهي لا تنفذ الى الداخل . ولذلك تعتمد الدجاجة الى توجيه الحرارة الى الداخل بواسطة قلبها . انها تفعل ذلك

(١) - كتاب سري لطوائف حبة الحياة الذهبية . (التقليد الأسطوري لهذا الكتاب ، تان شو ، يرجع الى زمن قديم جداً .) انظر ريتشارد ويلهلم :

Das Bucher Sittc, Jena 1930, P. 302.

قانون الطاوية الحالي لم يعد له كتاب بهذا العنوان (هـ . و .) .

بسمعها . بهذه الطريقة تجتمع قلبها كله . عندما ينفذ القلب ، تنفذ الطاقة ، ويتلقى الفرخ طاقة الحرارة ويبدأ الحياة . ولذلك تظل الدجاجة دائماً ، حتى عندما تترك بيضها أحياناً . ني وضع الإنصات بأذن حانية . وبذلك لا ينقطع تجمع الروح . وبما أن تجمع الروح لا ينقطع ، ولا تنقطع كذلك طاقة الحرارة ، لا ليلاً ولا نهاراً ، تستيقظ الروح على الحياة . وإنما تستيقظ الروح بموت القلب . وعندما يستطيع المرء أن يدع قلبه ليموت ، تستيقظ الروح على الحياة . أن يُقتل القلب ليس معناه أن يترك لَيْسَ ويذوي ، بل معناه انه أصبح غير منقسم واجتمع في واحد .

يقول البوذا : «عندما تثبت قلبك على نقطة واحدة ، لا شيء يستحيل عليك» . ما أيسر أن يُفقد القلب منك ، ولذلك كان من الضروري أن تجمعه بواسطة طاقة النَّسْ ؛ وما أيسر أن تخشن طاقة النَّسْ ، ولذلك اقتضى تليطها بواسطة القلب . عندما يتم ذلك ، هل يمكنه ألا يثبت ؟

يجب أن نكافح آفتي الكسل والغفلة بالعمل المادى الذي نقوم به يومياً بدون انقطاع ؛ وعندئذ يكون الفوز أمراً محققاً . اذا لم نجلس في وضعية التأمل ، فغالباً ما نقع في الغفلة من غير أن ندري . ان نصبح واعين للغفلة هو الآلية التي نتخلص بها من الغفلة . بين أن نكون واعين للكسل وألا نكون مسافة ألف ميل . الكسل الذي لا نشعر به هو الكسل الحقيقي ، بينما الكسل الذي نشعر به ليس بالكسل التام ، لأن شيئاً من الوضوح لم يزل فيه موجوداً . أما الغفلة فمتأتية من شroud الذهن ، والكسل من عدم صفاء الذهن . والغفلة أيسر على التصحيح من الكسل ، فهي أشبه بحال المريض : اذا احسننا بوجه ، استعنا عليه بالدواء . لكن الكسل أشبه بمرض خفي لا تظهر أعراضه . الغفلة يمكن أن نقاومها ، والالتباس يمكن تصحيحه ، لكن الكسل والنعاس ثقلان ومظلمان . الغفلة والالتباس لهما مكان على الأقل ، لكن مع الكسل والنعاس تنشط الأنيمة وحدها . في الغفلة يكون الأنيم لا يزال حاضراً ، أما في الكسل فالظلمة الخالكة هي التي تسود . اذا نعس المرء في أثناء التأمل ، فنعاسه متأت من كسله . وليس كالتنفس ما يكفل له التغلب على كسله . مع أن التنفس

الذي يتم شهيقاً وزفيراً من خلال الأنف ليس بالتنفس الحقيقي ، في شهيقه وزفيره ،
انما يحدث بمناسبته .

لذلك يتوجب على المرء ، وهو في جلسته ، أن يسكن قلبه ويجمع طاقته .
كيف نسكن القلب ؟ بالتنفس . ما على القلب الا ان يعي الشهيق والزفير في
تنفسه ؛ يجب ألا يسمعه بأذنيه . فإذا لم يسمعه ، يكون التنفس خفياً ؛ وإذا خف
صفاً ، اما إذا سمعه ، فطاقة التنفس عندئذٍ خشنة ، وإذا خشنت اضطربت ، وإذا
اضطربت تفاقم الكسل وثقل النعاس ، ورحنا نلتبس النوم . ان هذا بين بذاته .

يجب أن نعرف كيف نسخر القلب بالطريقة الصحيحة ونحن في أثناء
التنفس . انه تسخير بلا تسخير . ما على المرء الا ان يدع النور يقع لطيفاً على
السمع . هذه الجملة تحتوي على معنى خفي . ما معنى أن ندع النور يقع ؟ انه
الاشعاع العفوي لنور العينين . فالعين تنظر الى الداخل فقط لا الى الخارج . ان تحس
سطوع النار بدون النظر الى الخارج معناه انك تنظر الى الداخل ؛ ان هذا لا علاقة له
بالنظر الفعلي الى الداخل . ماذا يعني الإنصات ؟ إنه الإنصات العفوي للنور الذي
في الأذن . فالأذن تسمع ما بالداخل فقط ولا تسمع الى ما في الخارج . ان تحس
سطوع النور بدون الاستماع الى ما في الخارج هو أن تسمع داخلياً ؛ ان هذا لا
علاقة له ألته بالسمع الفعلي لما هو في الداخل . في هذا النوع من السمع ، لا
يسمع المرء شيئاً إلا ان ليس ثمة صوت . وفي هذا النوع من الرؤية لا يرى المرء شيئاً
الا أن ليس ثمة شكل أو صورة . فاذا لم تنظر العين الى الخارج ولم تسمع الأذن من
الخارج ، انكفأتا على نفسيهما ومالتا الى الغوص في الداخل . فقط عندما ينظر المرء
ويسمع داخلياً لا تتجه الحاسة الى الخارج ولا تغوص في الداخل . بهذه الطريقة
تخلص من الكسل والنعاس . ذلك هو اتحاد الحبة والنور في الشمس والقمر .

وإذا نعس المرء ، نتيجة للكسل ، كان عليه أن يستوي واقفاً على قدميه
وتمشي ، حتى اذا انجلى ذهنه هاد وجلس . وإذا كان لديه وقت في الصباح ،
أمكنه الجلوس في أثناء احتراق عود البخور ، ان هذا خير ما يفعله . وعند العصر ،
تدخل الشؤون البشرية ، ولذلك ما أسهل أن يقع المرء فريسة الكسل . غير أنه ليس

من الضروري أن يكون لديه بخور . كل ما عليه هو أن يطرح جانباً جميع المشكلات ويجلس في سكون تام مدة من الزمن . ثم في مجرى الزمن ينال الفوز بدون أن يصبح كسلان أو يستسلم للنوم .

الفكرة الرئيسية في هذا الجزء ان أهم شيء لتحقيق دوران النور هو التنفس الإيقاعي . كلما قطع العمل خطوة الى الامام ، اشتد التعليم عمقاً . في أثناء دوران النور ، يجب على التلميذ أن ينسّق بين القلب والتنفس لكي يجتنب الملل الناجم عن الكسل والغفلة ، يتخوف المعلم أن تنطلق التخيّلات السائبة المختلطة عندما يجلس المبتدؤون ويحفزون أجفانهم ؛ لأنه بسبب هذه التخيّلات يبدأ القلب بنفض حتى ليغدو من الصعب اقتيادُهُ . ولذلك يعلم رياضة عدّ الأنفاس وتثبيت أفكار القلب لئلا تهدر طاقة الروح في الخارج .

بما أن النَّفْس يأتي من القلب ، يأتي التنفس المضطرب (غير الإيقاعي) من اضطراب القلب . لذلك كان على المرء أن يتنفس ، شهيقاً وزفيراً ، في لطف لا تسمعه الأذن . وما على القلب الا ان يعدّ الأنفاس في هدوء . عندما ينمى القلب عدد الأنفاس ، فهذا علامة على أن القلب قد شرد الى الخارج . لذلك كان على المرء أن يجعل القلب في حال ثابتة . فاذا لم تسمع الأذن بانتباه ، او لم تنظر العينان الى جسر الأنف ، يحدث غالباً أن يشرّد القلب الى الخارج ، أو يستسلم للنوم . إن هذا علامة على أن الحالة تحولت الى اللتباس والنعاس ، وعندئذٍ يجب أن تعود حبة الروح الى النظام ثانية . عند خفض الأجفان وأخذ الاتجاه من الأنف ، اذا لم يغلق القم ، ولم تنضم الأسنان بعضها الى بعض بإحكام يسهل على القلب أن يسارع الى الخارج . لذلك كان على المرء أن يبادر الى اغلاق فمه وضم أسنانه بعضها الى بعض . ان الحواس الخمس تنظم نفسها على حسب القلب ، وعندئذٍ يكون على الروح أن تلجأ الى طاقة التنفس حتى يتألف القلب والنفس جميعاً . من هنا تنشأ الحاجة في معظم العمل اليومي الى بضعة أرباع الساعة لكي يتعاون القلب والنفس ويتألف من لقاء نفسيهما . وعندئذٍ لا حاجة الى عدّ الأنفاس لأن النفس أصبح إيقاعياً من لقاء ذاته . وعندما يصبح النفس إيقاعياً يتبدّد الكسل والنعاس تلقائياً .

٥ . الاغلاط التي تقع في أثناء دوران النور

يقول المعلم لو- تسو ، يتجمع العمل وينضج تدريجياً . لكن قبل أن تبلغ الى حالة تجلس فيها كشجرة ذاوية قبالة صخرة ، لا يزال ثمة امكانيات كثيرة للوقوع في الخطأ احب أن توليها انتباهاً خاصاً . هذه الأحوال لا نتعرف عليها الا اذا اختبرناها بصفة شخصية . ولسوف ابينها لك هنا . تختلف مدرستي عن مدرسة اليوغا البوذية (تشان - تسونغ)^(١) من حيث ان لها علامات تثبيت لكل خطوة نخطوها على الطريق . أولاً اود أن أتكلم عن الأغلاط ثم عن علامات التثبيت .

عندما يبدأ المرء تنفيذ قرار اتخذ ، عليه أن يحرص ان يجري كل شيء على نحو مريح وعفوي . يجب ألا نطلب من القلب الشيء الكثير . بل علينا أن نحرص على أن يعمل القلب والطاقة متعاونين بصورة تلقائية . وعندئذ فقط نصل الى حالة السكينة . وفي أثناء هذه السكينة يجب أن نفسح المجال أمام الأحوال الصحيحة والمكان الصحيح . يجب ان نجلس [لكي نتأمل] وسط توافه الأمور . بمعنى آخر ، يجب أن يتخلص الذهن من الهموم غير المجدية . جميع المشكلات يجب أن نطرحها جانباً ، يجب علينا أن نتخلى ونستقل . كذلك يجب الا تتجمع الأفكار حتى على الإجراء الصحيح . وينشأ هذا الخطر حين نكلف أنفسنا عناء هو فوق ما نتحمله . ولا أعني بذلك اننا يجب ألا نكلف أنفسنا العناء ، وإنما أن نلتزم الطريق الصحيح الذي يقع في منتصف المسافات بين «ان نكون» و«ألا نكون» . فإذا استطعنا بلوغ حالة انتفاء القصد من خلال القصد ، نكون عندئذ قد أمسكنا بالشيء . وفي هذه الحالة ، نستطيع أن ندع أنفسنا تذهب في طريق مستقل منفصلين وبلا اختلاط .

(١) - في اليابانية ، زن Zèn .

زيادة على ذلك ، يجب الانقع فريسة في مضيدة العالم . وما مضيدة العالم الا حيث ترتفع الأنواع الخمسة من الشياطين . هذه الحالة ، مثلاً ، هي عندما يكون لدينا ، بعد التثيت ، أكثر الأفكار عن الخطب اليابس والرماد الميت ، وأقل الأفكار عن النبع الرائق على الأرض العظيمة . بذلك يفرق المرء في عالم الظلمة ، حيث تبرد الطاقة ويخشن التنفس ، ويتوافد كثير من صور الرطوبة والعفن . فإذا مكثنا ثمة طويلاً ، دخلنا في عالم النبات والحجارة .

كذلك يجب الا يضل الإنسان بفعل عشرة آلاف الإغراءات . ويحدث هذا حين تظهر فجأة جميع أنواع العقد واحدة بعد أخرى ، بعد أن تكون بدأت حالة السكينة . يريد أن يتخلص منها فلا يستطيع ؛ يجري وراءها وهو يحسب انها تجلب الراحة اليه . وهذا معناه ان المولى أصبح خادماً . وإذا امرؤ مكث طويلاً في هذه المرحلة ، دخل في عالم الشهوات الخداعة .

في أحسن الأحوال ، يجد الانسان نفسه في السماء ، وفي اسوئها بين أرواح الثعالب^(١) . صحيح أن روح الثعلب هذه قد يكون في وسعها أن تحوم فوق الجبال الشاهقة ، وأن تستمتع بالرياح والقمر والزهر والثمر ، وتنال مسرتها من أشجار المرجان والعشب المرصع بالجواهر . لكنها بعد أن تكون قد تمتعت بكل هذا مدة ثلاثمائة سنة او خمسمائة ، أو على الأكثر مدة ألفين من السنين ، تنتهي مكافأتها ثم تعود لكي تولد من جديد في هذا العالم المضطرب . كل هذه الطرق غير صحيحة ، وعندما يتعلم الإنسان الطرق غير الصحيحة ، يصير بوسعه عندئذ أن يسأل عن علامات التثيت .

(١) - بحسب الفولكلور الصيني ، تستطيع الثعالب هي أيضاً الافادة من اكسير الحياة ، وبذلك تتوصل الى القدرة على تحويل نفسها الى كائنات بشرية . يقابلها في الميثولوجيا الغربية شياطين الطبيعة .

端拱冥心圖



الرسم رقم (٣) ويمثل المرحلة الثالثة من التأمل : انفصال جسد الروح لكي يستقل بوجوده .

٦ . خبرة التثبيت في أثناء دوران النور

يقول المعلم لو- نسو ، ثمة أنواع كثيرة من خبرة التثبيت . يجب ألا يقتصر المرء على المطالب لصغيرة ، بل يجب عليه أن يرتفع الى مستوى التفكير بأن جميع المخلوقات يجب تخليصها . يجب ألا يكون تافهاً أو غير مسؤول امام نفسه ؛ يجب عليه أن يسعى لكي تتوافق أفعاله مع أقواله . وإذا ظلت الروح ، وهي في الهدأة ، تستشعر الجذل العظيم لا ينقطع كما لو أنها خبيرة او خارجة حديثاً من الاستحمام ،

(١) - يظهر هذا الفصل بجلالة تأثيراً بؤدياً . الإغراء المذكور هنا يتألف من اضطراب الإنسان ، مدفوعاً بهذه التخييلات اللظيقة ، الى اعتبارها حقيقة ، والى الخضوع لها . (قارن هذا بالمشهد الذي يقوم فيه مفيستول بالقاء النوم على «فاوست» بواسطة شيطانية) .

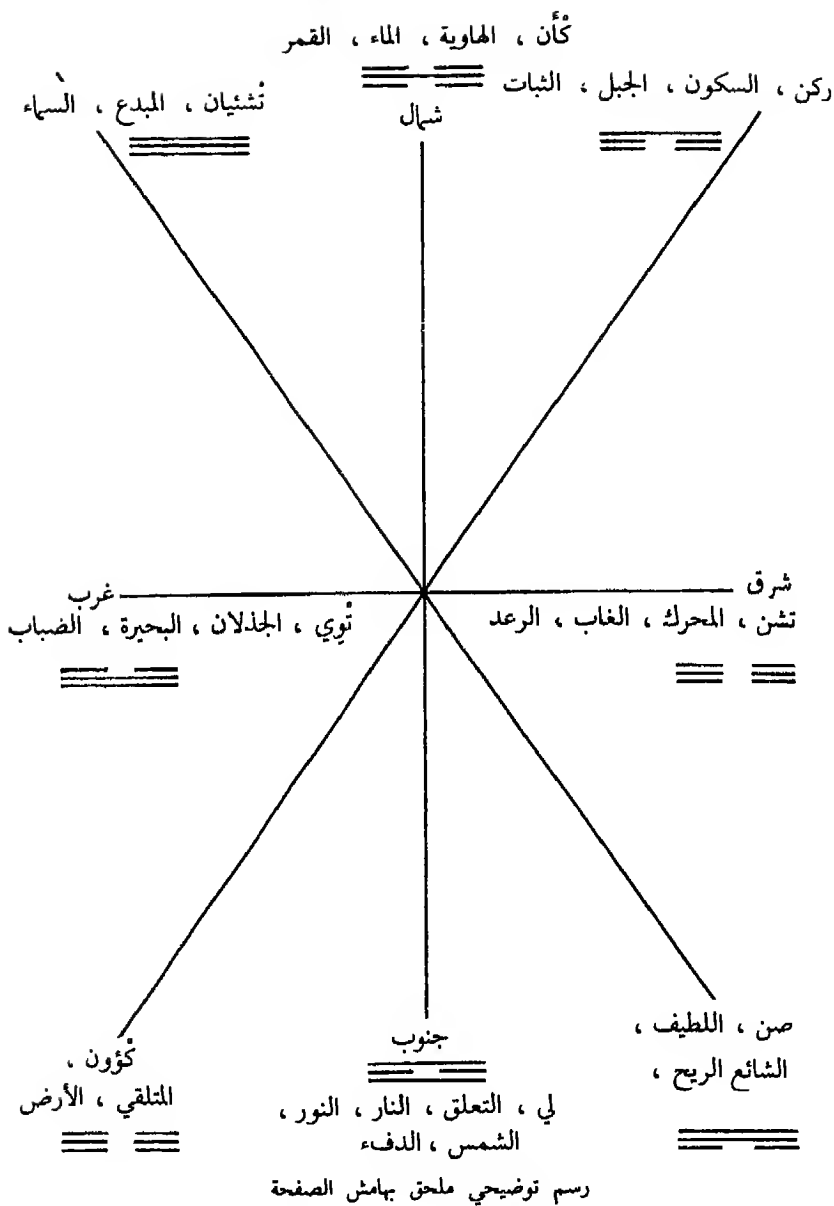
كان ذلك علامة على أن مبدأ النور قد أضحي سارياً في جميع أنحاء الجسد ، عندئذ تبدأ الزهرة الذهبية بإعطاء البرعم . ثم عندما تسكن جميع المنافذ ، ويقف القمر الفضفي في كبد السماء ، وشعر المرء بأن هذه الأرض العظيمة قد أصبحت عالم النور والسطوع ، فإن ذلك علامة على تفتح الزهرة الذهبية .

وإذا استشعر الجسد كله القوة والثبات حتى بات لا يجنح عاصفة ولا صقيعاً ، فلا شيء يحجب عنه حبة الروح عندما يصادف الأشياء التي يستاء منها الناس الآخرون . عندئذ يملأ البيت الذهب الأصفر ، وتكون درجات السلم من الشيب الأبيض والأشياء العفنة والمنتنة التي يتفق لها أن تلاصق نفساً واحداً من الطاقة الحقيقية تعود الى الحياة ثانية في التو واللحظة . وعندئذ يصير الدم الأحمر لبناً ، والجسد اللحمي السريع العطب ذهباً حراً وألماساً . كما هنا علامة على تبلور الزهرة الذهبية .

جاء في كتاب التفكير المثمر (ينغ - كوان - تشنغ) : «تغوص الشمس في الماء العظيم وتطلع صور الأشجار السحرية صفوفاً» . ان غروب الشمس معناه ان في السماء (في عالم ما قبل الظاهرات ، فيما قبل العالم المدرك) يوضع الأساس : أي الحالة غير المستقطبة [اللانائية] . اعلى الخير كالماء صافٍ لا عكر فيه . هو حاكم القطبية الكبير ، الإله الذي يظهر في مثلث الصدمة «تش»^(١) . ويرمز له أيضاً بالغابة حيث تظهر صورة الأشجار المصفوفة .

ان صفوف الأشجار السبعة انما تعني النور في منافذ الجسد السبعة (او منافذ القلب) . والشمال الغربي هو جهة المبدع . فإذا أوغل في البعد في أحد الأمكنة ، فثمة الهاوية . فالشمس التي تغوص في الماء العظيم هي رمز للمبدع والهاوية . والهاوية هي جهة منتصف الليل (الفار ، تسو ، الشمال) . في الانقلاب الشتوي ،

(١) - قارن بـ «الأي تشنغ» ، بحث المثلثات . ان «تشن» هو المثلث الدال على الرعد والتبع والشرق والغابة . اما المبدع والسماء ففي الشمال الغربي من هذا الترتيب . والهاوية في الشمال . (انظر الرسم التوضيحي في ملحق هذه الصفحة) .



يكون الرعد (تشن) خبيثاً في مركز الأرض ومحجوباً تماماً . ولا يعود قطب النور الى الظهور ثانية على الأرض الا عندما نصل الى مثلث «تشن» . تلك هي الصورة التي تمثلها صفوف الأشجار . والباقي يمكن استنتاجه تبعاً لذلك .

ويعني الجزء الثاني بناء الأساس على هذا . العالم الكبير كالجليد ، عالم مجوهرات كاملة . ويريقي النور يتجمد تدريجياً . ومن هنا ترتفع مصطبة عظيمة ويظهر عليها «البوذا» بمرور الوقت . عندما يظهر الكائن الذهبي ، من تراه يكون غير «البوذا» ؟ ذلك أن «البوذا» هو الإنسان الذهبي المقدس ، إنسان الاستنارة العظمى . وهذه خيرة تثبيت عظيمة .

يبقى الآن ثلاثة أنواع من خيرة التثبيت يمكن أن ندرسها . أولها أن تكون الآلهة في الوادي ، بعد أن يدخل المرء في حالة التأمل . نسمع أناساً يتكلمون كما لو أنهم على بعد عدة مئات الخطوات منا ، وكلام كل واحد منهم واضح تماماً . لكن الأصوات جميعها كرجع الصدى في واد . يستطيع المرء أن يسمعهم دائماً ، لكنه لا يسمع نفسه ابداً . أن هذا يُسمى حضور الآلهة في الوادي .

أحياناً قد يختبر الإنسان هذه الخبرة : ما إن يسكن ، ويبدأ نور العينين بالتوقد ، حتى يسطع كل شيء أمامه كما لو كان المرء في سحابة . وتدعى هذه الخبرة «في الحجرة الخاوية ينبثق النور» . كذلك في الداخل والخارج ، كل شيء نور . وهذه علامة ملائمة جداً .

أو عندما يجلس المرء في التأمل ، يشع جسده اللحمي ويغدو كالحرير أو اليشب . ويبدو من الصعب عليه أن يظل جالساً ، عندئذ يشعر المرء كما لو أنه يُختطف الى الأعلى . وتسمى هذه الخبرة «الروح تعود وتلمس السماء» . ويمرور الوقت ، يستطيع المرء ان يختبر هذه الخبرة على نحو يطفو فيه الى الأعلى حقاً .

وبعد ، فإن من الممكن اختبار جميع هذه الأنواع الثلاثة من الخبرة . لكن ليس كل شيء نستطيع ان نعبر عنه . أشياء مختلفة تظهر لكل شخص على حسب استعداده . وإذا اختبر انسان هذه الأشياء ، كان ذلك علامة على حسن استعداده .

بهذه الأشياء يكون الأمر مثل شرب الماء . اذ نستطيع أن نقول لأنفسنا ان كان الماء دافئاً او بارداً . بنفس الطريقة يجب على الإنسان أن يقتنع بهذه الخبرات ، وعندئذٍ فقط تكون حقيقية .

٧ . الطريقة الحية في دوران النور

يقول المعلم لو- تسو ، اذا حقق الإنسان نجاحاً تدريجياً في إحداث دوران النور ، يجب عليه ألا ينقطع عن أداء مشاغله العادية . فقد قال القدماء ، كنا اذا أتنا المشاغل تقبلناها ، وتفهمناها من أساسها . وإذا قمنا بتصريف هذه المشاغل بما يناسبها من الفكر الصحيح ، لم يتوزع النور في الأشياء الخارجية ، بل يدور وفقاً لقانونه الخاص . حتى دورة النور التي كانت حتى حينئذٍ خفية إنما تبدأ بهذه الطريقة ، إذن ، ما أخرى ان تكون الحالة أفضل بكثير مع دورة النور الصحيحة التي كانت قد تجلّت واضحة من قبل .

المرء في حياته العادية ، عندما يملك القدرة دائماً على الرد على الأشياء بالردود المعكسة فقط ، من دون أن يشوبها فكر من عنده أو من عند غيره ، فتلك هي دورة النور الناشئة عن الأحوال . ان هذا هو السرّ الأول .

ولو يستطيع المرء في الصباح الباكر أن يتخلص من جميع المشكلات وأن ينصرف الى التأمل بضع ساعات ، ثم ان يتجه بنفسه نحو جميع الفعاليات ويظل مع ذلك خارج الأشياء بحيث تأتي ردوده على الأشياء انعكاسية وموضوعية صرفة ، ثم اذا استمر على هذه الحال بدون انقطاع ، فما هو الا شهران أو ثلاثة حتى ينزل إليه جميع الكُمل من السماء ويوافقونه على هذا المسلك .

يتناول هذا الجزء ميادين البركة التي ندخلها عندما نمضي في عملنا قُدماً . والقصد منه هو تعليم التلاميذ كيف يجب عليهم ان يؤدوا عملهم يوماً فيوماً بطريقة ادق لعلهم ياملون بالوصول الى اكسير الحياة في وقت قريب . كيف اتفق للمعلم ان يتكلم عند هذه النقطة عن وجوب الا يتخلل

الإنسان عن طريقته المعتادة في الحياة ؟ قد يُستنتج من هذا ان المعلم يريد أن يمنع التلاميذ من بلوغ اكسير الحياة في وقت قريب . لكن من يعرف يُحبّ على ذلك به «لا» إطلاقاً ! . انما يخشى المعلم الا يحقق التلميذ (الكرما) الخاصة به ، ولذلك نجده يتكلم بهذه الطريقة . اما اذا افضى به عمله الى ولوج ميادين البركة ، فيصبح قلبه مثل صفحة الماء . اذا جاءته الأشياء عكسها ، واذا ذهبت عنه عادت الروح والطاقة فاتحدتا ثانية فلا تسمحان لنفسيهما بأن تتخطفها الأشياء الخارجية . ان هذا ما يرمي اليه المعلم عندما يحض التلميذ على التخلي عن جميع المشكلات التي تجعله يفكر في الناس وفي نفسه . وعندما ينجح التلميذ في جمع أفكاره الصحيحة على مكان الطاقة بصورة دائمة ، ليس عليه أن يياشر دوران النور بنفسه ، بل ان النور عندئذ يدور من تلقاء نفسه . وعندما يدور النور ، يصنع الإكسير بطريقة عفوية ، ولا يعود القيام بالمهام الدنيوية يشكل عقبة . ويختلف الأمر في بداية التأمل ، عندما تكون الروح والطاقة حينئذ متفرقتين ومختلطتين . فإذا لم نستطع أن نبعد عنا الشؤون الدنيوية ، ووجدنا مكاناً هادئاً نستطيع فيه أن نتجمع على أنفسنا بكل ما لدينا من قدرة ، بحيث نتجنب جميع المزعجات الآتية من المشكلات العادية ، فقد نكون مجتهدين في الصباح ، لكن لا بد لنا أن نكون كسالى في المساء . كم يقتضي الإنسان من الوقت حتى يصل الى الأسرار الحقيقية بهذه الطريقة ؟ ولذلك يقال ، عندما يبدأ المرء بالانكباب على العمل ، عليه أن يطرح جانباً شؤون المنزل . فإذا لم يستطع ذلك ، فليقم أحدهم بالاهتمام بها حتى يتفرغ للانتباه التام . لكن بعد أن نكون قطعنا شوطاً بعيداً في العمل ونكون قد اختبرنا فيه التثبيات الخفية ، لا يهم بعد ذلك ان نتولى تنظيم شؤوننا العادية في نفس الوقت حتى يتسنى لنا تحقيق «الكرما» الخاصة بكل منا .

ان هذا معناه الطريقة الحية في دوران النور ، وقديماً قال «الإنسان الحق» ، انسان نور القطب الأرجواني (تسو- يانغ تشن- جن)^(١) ، قال : «اذا استطاع المرء أن يؤدي عمله وهو مندمج بالعالم واستطاع مع ذلك أن يظل منسجماً مع النور ، عندئذ تكون الدائرة دائرة ، ويكون لذوي الزوايا زوايا ، يعيش بين الناس وخفياً ولكنه مرئي ، مختلفاً ولكنه مثلهم ، ولا يستطيع احد أن يحذه ؛ وعندئذ لا يستطيع أحد أن يلحظ أفعالنا الخفية . ان الطريقة الحية في دوران النور لها هذا المعنى بالذات : أن تعيش مندمجاً بالعالم وفي انسجام مع النور .

(١) - ثمة عدد من شيوخ الطاوية يحملون هذا الاسم . ولعل المشار اليه هنا هو تشانغ بو- توان ، الذي عاش في القرن الحادي عشر الميلادي .

٨ . تعويذة سحرية من أجل السفر الطويل

يقول المعلم لو- تسو ، ترك لنا يو تشنغ تعويذة سحرية من أجل السفر الطويل :

أربع كلمات تجمّع الروح في مكان الطاقة .
في الشهر السادس يرى فجأة ثلج أبيض يطير
في الساعة السادسة يُرسل قرص الشمس اشعة تُعطي العين
وعلى الماء تهبّ ريح اللطيف .

واحد ، وهو يجوب السماء ، يأكل طاقة روح المتلقي . وأعمق سر السر :
البلاد التي ليست في مكان ، ذلك هو الوطن الحقيقي ..
هذه الأبيات حافلة بالأسرار . وفحواها : أهم شيء في الطريق هو «الفعل
بالامتناع عن الفعل» . فالامتناع عن الفعل يحول بين الإنسان وأن يقع في أغلال
الشكل والصورة (في عالم المادة) . والفعل بالامتناع عن الفعل يحول بينه وبين أن
ينغمس في الفراغ المخدّر واللاشيئية الميتة . وتتوقف النتيجة كليّة على «الواحد»
المركزي . وتصدر النتيجة عن العينين . وهما مثل قطب «المركبة الضخمة» الذي
يدور عنه الخلق كله ؛ وهما تديران قطبي النور والظلام . يتوقف الأكسير من البداية
الى النهاية على شيء واحد : المعدن في وسط الماء ؛ أي الرصاص في اقليم الماء .
حتى الآن تكلمنا عن دوران النور ، مشيرين الى صدره الأولي الذي يعمل من
الخارج على ما بالداخل . ان هذا يساعدنا في اكتساب «السيد» . فهو للتلاميذ الذين
لم يزالوا في مراحل البداية . يلجئون المعبرين السفليين لكي يرتقوا الى المعبر بعد أن
تنجلي سلسلة الحوادث ، وتُعرف طبيعة الصدور ، لا تعود الساء تحتفظ بالطريق ،
بل تكشف السماء عن الحقيقة النهائية . أيها التلاميذ ، احفظوا السرّ وضاعفوا
جهودكم !



الرسم رقم (٤) ويمثل المرحلة الرابعة من التأمل : المركز في وسط الأحوال

ان دوران النور هو الاصطلاح الشامل . كلما قطعنا شوطاً الى الامام ، تفتحت الزهرة الذهبية وَرَبَتْ . لكنَّ هناك ضرباً من الدوران لا يزال ابعث على الدهشة . حتى الآن كان عملنا من الخارج على ما بالداخل ؛ اما الآن فنقيم في الوسط ونتحكم بما هو خارجي . حتى الآن كنا في خدمة السيد ؛ اما الان فنقوم بتوزيع أوامر السيد . لقد انقلبت العلاقة كلها الآن . فإذا أردنا أن نتوغل في الأقاليم الأخرى ، بواسطة هذا المنهج ، يجب علينا أولاً أن نحرص على التحكم بالجسد والقلب معاً تحكماً تاماً ، حتى نتحرر تماماً ونستشعر السلام ، ونخلص من جميع المشكلات فلا تزعجنا أننى إثارة ، ونكون مع القلب السهاوي الذي هو في نقطة المركز تماماً . ثم علينا أن نغض من أبصارنا خاشعين كما لو كنا نتسلم مرسوماً مقدساً يدعو الى تقلد وزارة . من تراه يجرؤ على العصيان ؟ ثم ننير بيت الهاوية بكلتا العينين (الماء ، كُأَن) . حيثما ذهبت الزهرة الذهبية ، هبَّ نور القطبية الحقيقي لملاقاتها . التعلق (السطوع ، لي لنا) ساطع من الخارج ، مظلم من الداخل ؛ ان هذا هو جسد المبدع ويدخل [الخط] المظلم الواحد ويصير سيّداً . النتيجة هي أن القلب (الوعي) ينمو معتمداً على الأشياء ، ويوجّه الى الخارج ، ويُقذف به الى الساقية . لكن ، عندما يُشع النور الدوّار على ما بالداخل ، لا ينمو معتمداً على الأشياء ، بل تُثبت طاقة المظلم ، وتشع الزهرة الذهبية متجمعة . ان هذا هو نور القطبية المتجمع . الأشياء المتقاربة يجذب بعضها بعضاً . وبذلك يضغظ خط النور المستقطب ، وهو خط الهاوية ، باتجاه الأعلى . انه ليس النور الذي في الهاوية وحسب ، وانما هو النور المبدع يلاقى نوراً مبدعاً . وما إن يتلاقى هذان الجوهران حتى يتحدّا اتحاداً لا انفصام له ، وعندئذ تنشأ حياة لا تنقطع ؛ تأتي وتذهب ، وتعلو وتهبط من تلقاء نفسها ، في بيت الطاقة الاولى . فيطلع المرء على الألق وعلى اللانهاية . ويشعر الجسد كله انه خفيف ويريد أن يطير . هذه هي الحال التي يقال عنها : السحب تملأ الجبال الألف ، ثم ما يلبث ان يروح ويغدو جيئة وذهاباً في منتهى اليسر ، يعلم ويهبط دون ان يدركه أحد . ثم يتوقف نبضه ونفسه . ان هذه هي لحظة الاتحاد المبدع ، أو الحال التي يقال عنها : القمر يجمع المياه ذات الآلاف العشرة . وفي وسط هذه الظلمة يبدأ

القلب السماوي بالحركة فجأة . ان هذه هي عودة النور الواحد ، الوقت الذي يأتي فيه الوليد الى الحياة

غير أن تفاصيل هذا يجب أن نشرحها بعناية . عندما ينظر شخص الى شيء ، ويستمع الى شيء آخر ، تتحرك العينان والأذنان وتتبعان المنظور والمسموع حتى يغيبا . كل هذه الحركات تابعة ، وإذا تبعها الحاكم السماوي في مهامها ، فمعنى هذا انها تعيش مع الشياطين .

اما اذا عاش المرء ، في أثناء كل حركة وكل سكون ، مع الناس لا مع الشياطين ، فيكون الحاكم السماوي عندئذ هو الإنسان الحقيقي . وإذا تحرك وتحركنا معه ، تصبح هذه الحركة جذر السماء . وإذا سكن وسكنّا معه أيضاً ، كانت هذه السكون كهف القمر . وإذا ما انفك يناوب بين الحركة والسكون ، فلا تتردد في المضي معه في الحركة والسكون . وإذا علا وهبط مع الشهيق والزفير ، فأعْلُ واهبطْ معه . ان هذا ما يُسمى بالسّير جيئة وذهاباً بين جذر السماء وكهف القمر .

إذا ظل القلب السماوي محتفظاً بهدوئه ، كانت الحركة في غير وقتها الصحيح عيباً في النعومة . وإذا تحرك القلب السماوي ، كانت الحركة التي تعقب ذلك لكي تتطابق معه عيباً في الصلابة . حالما يتحرك القلب السماوي ؛ ما على المرء الا أن يصعد الى الأعلى بكل قلبه الى بيت المبدع . بذلك يرى القمة نورُ الروح ؛ ان هذا هو القائد . هذه الحركة تتفق مع الوقت . القلب السماوي يعلو الى قمة المبدع ، حيث ينتشر في حرية تامة . ثم يحتاج فجأة الى أعْمَق الصمت ، وعلى المرء عندئذ أن يقوده بسرعة ويكل قلبه الى القلعة الصفراء ؛ وبذلك يرى المسكن المتوسط الأصغر حيث تقطن الروح .

وعندما تأتيه الرغبة في الصمت ، لا تنهض ولا فكرة . ومن ينظر الى الداخل ينس فجأة انه ينظر . وفي هذا الوقت ، يجب أن يترك الجسد والقلب طليقين تماماً . لقد تلاشت جميع المشكلات ولم تخلف وراءها أثراً . وعندئذ لا أعود أعرف أين موقع بيت روحي ولا موقع بوتقتي . وإذا أراد امرؤ أن يتيقن من جسده ، لا يستطيع أن

والشهر السادس هو التعلق (النار ، لي) Li . والثلج الأبيض المتطاير هو الظلمة القطبية الحقيقية الموجودة في قلب نار المثلث ، التي تهم بأن تتحول الى المتلقي . والساعة الثالثة هي الهاوية (الماء ، كُنْان) ، وقرص الشمس هو الخط القطبي الواحد في مثلث الماء ، الذي يهم بأن ينقلب الى المبدع . ان هذا ينطوي على الطريقة التي يتم فيها تلبس الهاوية بالمثلث ، وعلى الطريقة التي يتم فيها قلب المثلث الى التعلق (النار ، لي) Li .

والبيتان التاليان لها علاقة بفعالية قطب «المركبة الضخمة» ارتفاع قطبية العتق وانخفاضها . الماء هو مثلث الهاوية ؛ والعين هي ربح اللطيف (صن) . نور العينين يضيء بيت الهاوية ، ويضبط فيه حبة النور العظيم . في السماء ، هذا معناه بيت المبدع (تشيان) . والتجوال في السماء ، واحد يأكل طاقة روح المتلقي ، هذا يبين كيف تتغلغل الروح في الطاقة ، وكيف تتغلغل السماء في الأرض ؛ يحدث هذا لكي تتغذى النار .

أما البيتان الأخيران فيشيران الى أعماق الأسرار ، التي لا يمكننا الاستغناء عنها من البداية الى النهاية . هذا هو غسل القلب وتصفية الأفكار ؛ هذا هو الاستحمام . العلم المقدس يعتبر مكان الوقوف بداية ، والتوقف عند الخير الأعلى نهاية . بدايته تتعدى القطبية ثم يعود فارغاً فيها وراء القطبية .

تكلم البوذا عن الزائل الذي يخلق الوعي بما هو الحقيقة الأساسية في الدين . كل عملنا الذي يقوم على إتمام الحياة والطبيعة البشرية في طاوينا انما يكمن في تعبير «إحداث الفراغ» ، الديانات الثلاث كلها تؤمن بقضية واحدة هي إيجاد الأكسير الروحي لكي نعبّر من الموت الى الحياة . مم يتألف هذا الأكسير الروحي . ان معناه دائماً وأبداً البقاء في انتفاء القصد . أعماق أسرار الاستحمام الذي نجاهه في تعليمنا هو قصر العمل على تفرغ القلب . فيه تُسوى المسألة . ان ما يَبْنَتْهُ هنا في كلمة هو ثمرة جهد عشر سنوات .

وإذا لم يتضح لك بعد الى أي مدى يمكن هذه الأجزاء الثلاثة جميعاً أن تمثل في جزء واحد ، فساعدنا الى توضيح ذلك من خلال التفكير الثلاثي البوذي المؤلف من الفراغ والوهم المركز .

يأتي الفراغ هي المرتبة الأولى من هذا التفكير الثلاثي ، وذلك عندما ننظر الى جميع الأشياء على أنها فارغة . ثم يلي الفراغ الوهم . رغم معرفتنا بفراغ الأشياء ، لكننا لا نحطمها ، بل نهتم بشؤوننا في وسط الفراغ . ورغم أننا لا نحطمها ، لكننا لا نعييرها انتباهنا ؛ ان هذا هو التفكير في المركز . وعندما نتفكر في الفراغ ، نعلم أيضاً أننا لا نستطيع تحطيم عشرة آلاف الأشياء ، ونظل مع ذلك غير ملاحظين لها . بهذه الطريقة تتلاقى مراتب التفكير الثلاث . لكن ، لا ننس أن العزيمة هي في تأمل الفراغ . ولذلك عندما نتفكر في الفراغ يكون الفراغ فارغاً حقاً ، لكن الوهم فارغ والمركز فارغ أيضاً . نحتاج الى قوة عظيمة لكي نتفكر في الوهم ؛ وعندما نتفكر في الوهم يكون الوهم وهماً حقاً ، لكن الفراغ وهم والمركز وهم أيضاً . وحين نكون في المركز ونخلق صور الفراغ لا نسميها فارغة بل مركزية . كذلك عندما نتفكر في الوهم لا نسميه وهماً ، بل مركزياً . أما فيما يتعلق بالمركز فلا حاجة بنا الى مزيد قول .

يرد في مطلع هذا الجزء تعويذة يو- تشنغ السحرية المتعلقة بالسفر الطويل ، التي تبين أن العجيبة الخفية التي تحدث في الطريق هي نشوء شيء من لا شيء . وبما أن الروح والطاقة متحدان في شكل متبلور ، تظهر مع الزمن نقطة نار حقيقية وسط فراغ اللا شيء . وفي غضون ذلك ، كلما سكنت الروح امتدت النار اتقاداً . ويقارن اتقاد النار بحرارة الشمس في الشهر السادس . وبما أن النار المتقدة تجعل ماء الهاوية يتبخّر ، وبما أن البخار يسخن حتى يصل الى درجة الغليان ، يتصاعد البخار كالثلج المطاير . والمراد بهذا أننا نستطيع أن نرى الثلج يتطاير في الشهر السادس . لكن بما أن الماء يتبخّر بالنار ، عندئذٍ تستيقظ الطاقة الحقيقية . ومع ذلك عندما يستريح الظلام ، يبدأ النور بالحركة ؛ فيكون مثل حال منتصف الليل . لذلك يطلق الشيوخ على هذا الوقت اسم وقت منتصف الليل الحي . في هذا الوقت ، نعود الى الطاقة لكي نجعلها تدفق الى الخلف وتعلو ، ثم تدفق الى الأسفل وتهبط كما تغزل الشمس أشعتها نحو العلاء . ولذلك قيل : «في الساعة الثالثة يرسل قرص الشمس أشعة تعمي العين» وطريقة الدوران تستخدم النفس لكي يهب على نار مداخل الحياة ؛

بذلك نعيد الطاقة الحقيقية الى مكانها الصحيح . ولذلك قيل أن «الريح تهب على الماء» . من أصل الطاقة الوحيدة وهي طاقة الساء السابقة ، ينشأ الشهيق والزفير في الساء اللاحقة وطاقتها الملتهبة .

الطريق يمضي من المؤخرة الى الأعلى بواسطة انكفاء الدفق الى الخلف وصولاً الى قمة المبدع ، ومن قمة المبدع الى بيت المبدع ، ثم يغور من خلال الطابقين بواسطة الدفق المباشر الى الأسفل حيث الضفيرة الشمسية ، ويدفئها . ولذلك قيل : وهو يجوب الساء يأكل طاقة روح التلقي . وحين تنكفئ الطاقة الحقيقية الى المكان الخلاء ، تفتني وتربو ، وتدخل المسرة والبهجة على القلب والجسد . فإذا لم نستطع الوصول الى هذه الغاية بتدوير عجلة التعليم ، فكيف نستطيع القيام بهذا السفر الطويل بوسيلة أخرى ؟ ما يؤدي اليه الطريق هو هذا : تشع الروح المتبلورة الى الخلف نحو نار الروح ، وبواسطة الهادئ الأعظم ، تستعر النار في وسط الماء الواقع في منتصف الكهف الخلاء . ولذلك قيل : وأعمق سرّ السرّ : البلاد التي ليست في مكان ، ذلك هو الوطن الحقيقي .

هوذا التلميذ قد أوغل في عمله في الأقاليم الخفية ، لكنه ربما لا يُنتج إكسير الحياة إن لم يعرف طريقة الذوبان . لذلك كشف المعلم النقاب عن السرّ الذي ما برح القديسون يحرسون على كتمانهم أشد الحرص . عندما يُثبت التلميذ الروح المتجمعة داخل كهف الطاقة ، وفي نفس الوقت يترك الأمر للهداء العظمي ، ينشأ في حنّك الظلام شيء ما من اللاشيئية ، أي ، تظهر الزهرة الذهبية ، زهرة «العظيم» . وعندئذٍ يتميز النور الواعي من نور الطبيعة البشرية (هينغ) . ولذلك قيل : «الحركة الناجمة عن تحريض الأشياء الخارجية تؤدي الى ذهابها رأساً الى الخارج وإلى خلق إنسان . ذلك هو النور الواعي . وبعد أن تتجمع الطاقة الحقيقية تماماً ، على التلميذ ألا يتركها تتدفق الى الخارج ، بل الخلف ؛ ان هذا هو نور الحياة . يجب أن نطبق طريقة «تدوير الناعورة» . فإذا أدُرناها وأدُرناها ، عادت الطاقة الحقيقية الى الجذور ، نقطة نقطة . وعندئذٍ تقف الناعورة ، وينظف الجسد ، وتتجدد الطاقة . ان دورة واحدة من الناعورة تعنى دورة سماوية واحدة ، وهو ما دعاه المعلم «نشيو» بالدورة السماوية الصغيرة . لكن ، اذا لم ينتظر حتى تتجمع الطاقة تماماً . رقت الطاقة وضعفت ، ولم يتكوّن الإكسير . كذلك حين نهملها ولا نعملها ، تغدو بالغة القدم والصلابة ، فلا يُنتج عندئذٍ إكسير الحياة . اما حين لا تكون بالغة القدم ولا بالغة الرقة ، فيكون الوقت مناسباً لاستعمالها بصورة هادفة . ان هذا ما قصد اليه البوذا عندما قال : الظاهرة تصبّ في الفراغ . وهذا هو التسامي الحبة الى الطاقة . اما اذا لم يفهم التلميذ هذا المبدأ ، وترك الطاقة تجري رأساً الى الخارج ، فعندئذٍ تتحول الطاقة الى حبة . ان هذا هو المقصود عندما يقال : «الفراغ يجري في النهاية في الظاهرات» . لكن كل رجل يتحد باموأة جسداً يشعر أولاً بلذة ثم يشعر بعدها بمرارة ؛ عندما تجري الحبة الى الخارج ، يتعب الجسد وتضوى الروح . ويختلف الأمر اختلافاً كبيراً عندما تتحد

الطاقة والروح . ان هذا يجلب النقاء أولاً ثم الجدة ؛ عندما تتحول الحبة يصبح الجسد صحيحاً وطيافاً . ثمة اعتقاد خاطئ بأن المعلم القديم «بأنغ» قد عاش ثمانمائة عام لأنه استفاد من الجواري في تغذية حياته . والصحيح انه استخدم طريقة تسمي الروح والطاقة . في القسم الأعظم من إكسير الحياة انما تستخدم الرموز ، وكثيراً ما تشبه نار التعلق (لي لنا) بالبروس ، وماء الهاوية بالصبي . ومن هنا نشأ الفهم الخاطئ عن المعلم «بأنغ» بأنه استعاد حيويته بواسطة النساء . هذه أخطاء وجدت ط طريقاً في أجيال لاحقة .

لكن المتقدمين لا يستطيعون استخدام وسائل قلب الهاوية والتعلق الا حين يخلصون النية في العمل ، وإلا لم يتج مزيج صاف . الغاية الحقيقية تابعة للأرض ؛ لون الأرض أصفر ، لذلك يُرمز اليها في الكتب التي تبحث في إكسير الحياة بالجرثومة الصفراء . عندما تتحد الهاوية والتعلق ، تطلع الزهرة الذهبية ؛ اللون الذهبي أبيض ، ولذلك يستعمل الثلج الأبيض له رمزاً . لكن الدنيويين الذين لا يفهمون الكلمات السرية في «كتاب إكسير الحياة» يخطئون فهم «الأصفر» و«الأبيض» عندما يتخذون منها وسيلة لصنع الذهب من الحجارة . اليس هذا حقاً ؟

يقول أحد التيوخ القدامى : «قديماً ، عرفت كل مدرسة هذه الجوهرة الا الحمقى فلم يعرفوها كلها . اذا فكرتاني هذا القول رأينا أن القدماء وصلوا الى الحياة المديدة حقاً ، مستعينين بطاقة الحبة الماثلة في أجسامهم ، وأنهم ما أطالوا أعمارهم بتناول هذا النوع أو ذاك من الإكسير . لكن الدنيويين اعملوا الجذور وتعلموا بذرى الشجر . يقول «كتاب إكسير الحياة» أيضاً : عندما يستخدم الرجل الصحيح (الساحر الأبيض) أدوات غير صحيحة ، تعمل الأدوات غير الصحيحة بطريقة صحيحة ، ومعنى هذا تحويل الحبة الى طاقة . لكن اذا استخدم الرجل الصحيح (الساحر الأبيض) أدوات غير صحيحة ، تعمل لأدوات غير الصحيحة بطريقة صحيحة ، ومعنى هذا تحويل الحبة الى طاقة . لكن اذا استخدم الرجل غير الصحيح أدوات صحيحة ، تعمل الأدوات الصحيحة بطريقة غير صحيحة ، ويعنون بهذا جماع لرجل والمرأة الذي ينبع منه الأبناء والبنات . والآخر من يضع أثمن جوهرة في جسده في شهوة جمحة ، ولا يعرف كيف يحافظ على طاقة الحبة ، حتى اذا نفدت هلك جسده . ليس عند الحكماء والقديسين من طريقة لتهذيب حيواتهم غير تحطيم شهواتهم والمحافظة على الحبة . عندما تتحول الحبة المتجمدة الى طاقة ، وتتوفر من الطاقة ما يكفي ، يُصنع الجسد القوي الخلاق . والفرق الذي يُظهره الناس العاديون يتوقف على طريقة استخدامهم للدق باتجاه الأسفل أو الدق باتجاه الخلف .

يتوجه كل مني هذا الجزء الى توضيح طريقة تعبئة الزيت للتلميذ عندما يواجه الحياة . العينان هنا هما الشيء الرقيبي . فهما مقبض نجم القطب . فكما أن السماء تدور حول نجم القطب بما هو

نقطة المركز ، هكذا يجب أن تكون البنية الصحيحة السيد بين الناس . لذلك يتوقف إتمام إكسير الحياة على صحة الغاية وانسجامها . ثم ، اذا قيل بأن الأساس يمكن إرساؤه في مائة يوم ، يجب علينا أن نأخذ بالحسبان قبل كل شيء درجة الكدّ في العمل ودرجة القوة في البنية الفيزيائية . ومن يتحمّس للعمل ، ويكنّ قوي البنية ، يوفق قبل غيره الى تدوير الناعورة في مؤخرة النهر . ومن يخلق الانسجام بين الطاقة والأفكار ، يكنّ توسعه صنع إكسير الحياة في مائة يوم . وإذا تم صنع إكسير الحياة ، صفت الطاقة والروح ، وفرغ القلب ، وانجلت الطبيعة البشرية ، وتحول نور الوعي الى نور للطبيعة البشرية . وإذا أقمنا على التثبيت بنور الطبيعة البشرية ، فإن التفاعل بين التعلق (النار ، لي لنا) وبين الهاوية يجري بصورة تلقائية . وما ان يندمج التعلق والهاوية حتى تولد الثمرة المقدسة . انما تنضج الثمرة المقدسة بفعل الدورة السأوية العظيمة . وكل شرح يتوقف عندما نصل الى الكيفية التي تحصل بها الدورة السأوية .

ان هذا الكتاب معنيّ بوسائل تهذيب الحياة ، ويبين لنا كيف نبدأ النظر الى جسر الأنف ؛ هنا نظهر طريقة قلب الأشياء أو عكسها . أما طرائق التثبيت والإخلاء ففي كتاب آخر هو «فوسونغ فانغ»^(١) - (طرائق إطالة الحياة) .



(١) - الأسم الآخر لهذا الكتاب هو (هوي مينغ تشنغ) (هـ . و) .

مجلد المفاهيم الصينية التي تقوم عليها فكرة الزهرة الذهبية او جسد الروح الخالد^(٢)

ينشأ عن اللاو، الواحد العظيم غير المنقسم، مبدأان متضادان، هما الظلام والنور، أو «ين» و«يانغ». هذان المبدأان، ابتداءً، هما قوتان من قوى الطبيعة ولا علاقة لهما بالإنسان. ثم ينشأ عنها الاستقطاب الجنسي وسواه. من الظلام (ين) ينشأ المبدأ المؤنث للتلقي (كؤن)، ومن النور ينشأ المبدأ المذكر المبدع (تشيان). ومن الظلام (ين) الحياة (متغ)، ومن النور (يانغ) تأتي الطبيعة البشرية (هينغ).

كل إنسان بنطوي، على جوهر فرد مركزي، ينقسم في لحظة الحمل الى حياة (منغ) وطبيعة بشرية (هينغ). والاثنان مبدأان يتخطيان الفرد، ولذلك يمكن أن نقرنهما بـ «إيروس» (الحب او العشق) و«لوغوس» (الكلمة أو العقل).

في وجود الإنسان الجسماني الشخصي يمثل المبدأين قطبان آخران هما روح بؤو (الأنيمة) وروح مؤون (الأنيم). هذان القطبان يصطرعان طيلة حياة الإنسان، ويجهد كل منهما للسيطرة على الآخر. وعند الموت ينفصلان ويذهب كل منهما في طريق مغاير. تعرض الأنيمة (بؤو) في الأرض حيث تصير كائناتاً شبحياً (كواي)،

(٢) - هذا المجلد بالرسم البياني الذي يليه أعدهما المترجم للطبعة الانكليزية (ك . ف . ب).



هُوِي مِنْغ تَشْنَع

كتاب
الوعي والحياة

١ . انقطاع الدفق الى الخارج

ان كنت تريد أن تكمل جَسَدَ الالماس بلا دفق الى الخارج ،
عليك بتسخين جذور الوعي والحياة بإتقان ..
أوقد المصباح في البلاد المباركة القرية أبدأ منك ،
ولتسكن نفسك الحقيقية دائماً ، خبيثاً هناك .

في النص الصيني نجد رسماً يكشف عن جسم الإنسان . في منتصف الجزء الأسفل من الجسم
حجيرة صغيرة فيها ينفصل طريق الحياة عن طريق الوعي . وبين الطريقتين قناة تؤدي الى العالم
الخارجي ، ومن خلال هذه القناة تجري السوائل الحيوية الى الخارج^(١) .

الطبيعة البشرية والحياة (هينغ - مينغ) أخفى أسرار «الطاو» . ما من وسيلة
لتهذيب الطبيعة البشرية والحياة خير من ردهما جميعاً الى الوحدة . لقد بين القديسون
القدامى والحكماء العظام ما عندهم من أفكار تتعلق بتوحيد الطبيعة البشرية والحياة
بواسطة الصور الآتية من العالم الخارجي ، لكنهم كانوا يكرهون أن يفصحوا عنها
صراحةً بدون استخدام الرمز . ولذلك ضاع من على وجه الأرض ذلك السر الذي

(١) - هذه الملاحظة التوضيحية والملاحظات التالية ساهم بها ريتشارد ويلهم (ك . ف . ب) .

كالشرر في أتون التقطير ، وتكونان جُملَةً من الانسجام البدني والقانون الإلهي .
ولذلك يقال : «في حالة ما قبل الظهور يوجد نَفْس لا ينقطع ، كذلك يقال : قبل أن
يلد الأبوان ولدهما ، يكون نَفْس الحياة تالماً والجنين مكتملاً . ولكن عندما يتحرك
الجنين ، وتنشق عنه الحويصلة ، يصبح الأمر أشبه ما يكون بإنسان أضاع موطىء
قدمه على جبل عال : بصيحة وإحداً يهوي انحداراً على الأرض . منذئذٍ تنفصل
الطبيعة البشرية والحياة بعضهما عن بعض . ومنذئذٍ لا يكون بمقدور الطبيعة البشرية
أن ترى الحياة ، ولا الحياة الطبيعية البشرية . وهنا يأخذ القدر مجراه : يتحول
الشباب الى نضج ، والنضج الى شيخوخة ، والشيخوخة الى عجز .

لذلك أفشى الجولاي^(١) ، في رحمته الواسعة ، سر الخلق والتدوير . وعلمنا
كيف نعود فندخل ثانية في الرحم ، وأن نخلق الطبيعة البشرية وحياة الأنية (ego)
خلقاً جديداً . وبين لنا كيف يدخل الروح والنفس (النفس الحيوي) الى الحويصلة
الأصلية ، وكيف يجب أن يندجما في وحدة تكتمل بها الثمرة الحقيقية ، تماماً مثل
دخول مَنِي^(٢) الأب والأم ونفسهما في هذه الحويصلة ويكونان كائناً واحداً حتى
يكتمل الجنين .

المبدأ واحد في الحالين .

في قلب الحويصلة الأصلية نجد نار الملك ، وعلى بابها نار الوزير ، وفي
الجسد كله نار الرعية . عندما تعبر نار الملك عن نفسها ، تتلقاها نار الوزير . وعندما
تتحرك نار الوزير ، تتبعها نار الرعية . وهذه النيران الثلاث عندما تعبر عن نفسها
ينشأ إنسان . لكن عندما تنكص هذه النيران الى الخلف ينشأ الطاو .

(١) - البوذا تاتاكتا .

(٢) - تشنج ، المنى ، هو العنصر المذكر ، نشئي ، النفس ، طاقة النفس ، هو العنصر المؤنث
المتلقي .

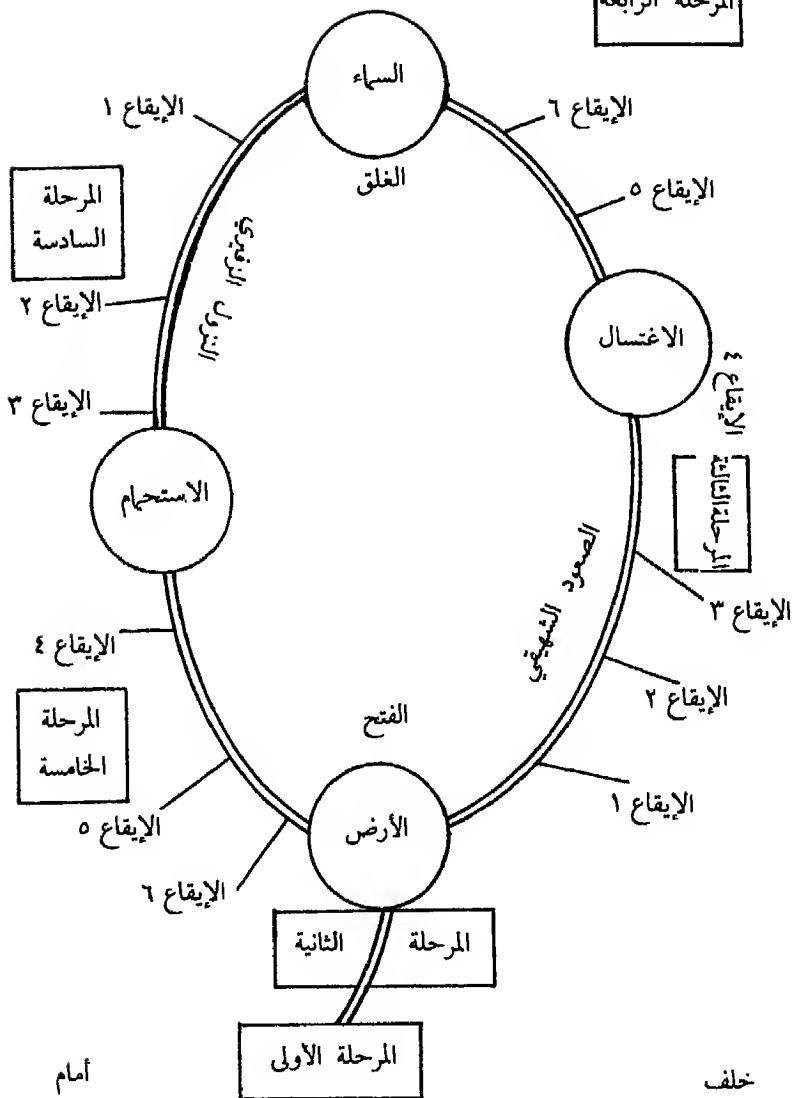
ان هذا هو السبب الذي جعل جميع الحكباء يبدؤون عملهم بالحويصلة الأصلية التي ينقطع فيها الدفق الى الخارج . فاذا لم ترسخ قدمنا في هذا الطريق ، وباشرنا أشياء أخرى ، فلا جدوى . ولذلك لا تستطيع جميع المدارس والفرق التي تجهل ان مكان المبدأ السائد في الوعي والحياة هو هذه الحويصلة ، ثم تسعى تبعاً لذلك للبحث عنه في العالم الخارجي ، لا تستطيع أن تحقق شيئاً بالرغم من كل الجهود التي تبذلها للعثور عليه في الخارج .

٢ . مراحل الدوران الست طبقاً للناموس

لو نَمِيزُ بدايةَ دَرْبِ البوذا ،
لوجدنا مدينة الغرب المباركة .
بعد الدوران طبقاً للناموس ،
ثمة التفات الى الأعلى نحو السماء عندما نأخذ النفس الى الداخل .
عندما يطلع النفس الى الخارج تتجه الطاقة الى الأرض .
حقة زمن واحد مكوّن من ست مراحل .
في مرحلتين نصل الى «موني» (سكياموني) ،
الطاو العظيم ينبثق من المركز .
لا تبحث عن الحبة البدئية في الخارج .

أعجب آثار الطاو هو الدوران طبقاً للناموس . وما يجعل الحركة لا تتوقف هو الدرب . وخير ما ينظم الحركة هو الإيقاعات (كواي) . وخير ما يعيّن عدد التمارين هو أسلوب المراحل (هو هو) .

ان هذا البيان يحتوي على الناموس كله ، اذ تدخل فيه الملامح الحقيقية للبوذا الآتي من الغرب . والأسرار الداخلة فيه تبين لنا كيف نتحكم بسياق الزفير



٣ . طريقان للطاقة أحدهما للفعل والثاني للسيطرة

هناك حيث يظهر طريق الشهيق والزفير في المجاز البدني .
لا تنس الطريق الأبيض فيما دون الدوران طبقاً للناموس !
دع دائماً كهف الحياة الأبدية يتغذى في النار !
وي ! اختر المكان الخالد حيث الدرّة المتلألئة !

في النص رسم آخر هنا شبيه جداً بالرسم الأول . وهو أيضاً يبين طريقين للطاقة : اولها امامي ويؤدي الى الأسفل ، ويسمى طريق الفعل (جن Jen) والثاني خلفي ويؤدي الى الأعلى ، وهو طريق السيطرة (تو tu) .

الرسم هو في الواقع نفس الرسم الذي تقدمه . والغرض من رسامي له ثانية ان يعرف من يسعى الى بلوغ «الطاو» ان في جسد نفسه دوراناً طبقاً للناموس . ولقد اعددت هذا الرسم بغية تنوير الصاحب الساعين الى بلوغ الهدف . وعندما يتصل الطريقان (طريقا الفعل والسيطرة) برابطة لا تنفصم ، ينضم جميع طرق الطاقة بعضها الى بعض . ينام الغزال وأنفه على ذيله لكي يسدّ طريق طاقة السيطرة . والكركي والسلحفاة يسدّان الطريق امام طاقة الفعل . ومن هنا تعيش هذه الحيوانات الثلاثة ما لا يقل عن ألف سنة . كم يستطيع الإنسان أن يعيش أكثر ! الإنسان الذي يسعى الى بلوغ «الطاو» ويحرك الدورة طبقاً للناموس ، بغية ان يدع واعية وحياته تدور لا حاجة به الى الخوف من الآ تطول حياته ، وألاً يكمل طريقه .

٤ . جنين الطاو

طبقاً للناموس ، لكن بدون إرهاق ، على المرء أن يسعى
جاداً للملء نفسه بالنور
أن ينسى الظاهر ، وينفذ الى الباطن ويعين القوة

الروحية الحقيقية !

عشرة أشهر يظل الجنين تحت النار .
بعد عام تصبح المغتسلات والمستحمات دافئة .

الرسم المبين هنا يتفق مع الرسم المشار اليه برقم (٢) (١)

نجد هذا الرسم في الطبعة الأصلية من (لانغ - ين - تشنغ) . لكن جهلة الرهبان الذين لم يدركوا المعنى الخفي ، ولم يعرفوا شيئاً عن جنين الطاو ، اخطؤوا اذ تركوا هذا الرسم في الخارج . لم أعرف الا من الشروحات التي كتبها الشيوخ ان «الجولاي» (تاتاكاتا) كان يعرف العمل الحقيقي على جنين الطاو . هذا الجنين ليس شيئاً جسدياً منظوراً يمكن أن تكمله أشياء أخرى ، بل هو ، في الحقيقة ، طاقة النفس الروحية الموجودة في الأنية (ego) . يجب أولاً أن تشيع الروح في طاقة النفس (النفس) ، ثم تقوم طاقة النفس بتغليف الروح . وعندما تتحد طاقة النفس مع الروح اتحاداً وثيقاً ، وتبدأ الأفكار وتسكن ، إن هذا يوصف بالجنين ، يجب أن تتجمع طاقة النفس ، وعندئذ فقط تصبح الروح فاعلة . لذلك يقال في (لانغ - ين - تشنغ) ؛ «ابذل عناية الأم في الاستيقاظ والاجابة» . الطاقتان تغذي احدهما الأخرى وتشد أزرها . ولذلك يقال : «ويحدث نمو يومي» ، عندما تشتد الطاقة تماماً ، ويستدير الجنين ويكتمل ، يخرج من سمّت الرأس . ان هذا يسمى : المظهر المكتمل الذي ينبثق جينياً ويلد نفسه ابناً للبودا .

٥ . مولد الثمرة

خارج الجسد جسد يسمى صورة البودا

(١) - هذه الملاحظة التوضيحية والأربع المائلة لها فيما يلي هي مما أعده هلموت ويلهلم (ك . ف . ب) .

الفكرة اني هي فكرة قوية ، غياب الأفكار ، هي بوذي
زهرة اللوتس ذات الألف تُوج تنفتح ، تتحول من خلال طاقة النفس
بسبب تجمع الروح ، مائة ضعف من الروح يُشع ضياءً

الصورة التي تتلق بهذا الموضوع هي المشار إليها برقم (٣)

في (لانغ - ين - تشو)^(١) ، يقال : «في ذلك الوقت جعل ملك العالم مائة
ضعف من النور الثمين يشع من جدائل شعره . في وسط النور أشعت زهرة اللوتس
ذات الألف تويج . في قلب الزهرة جلس من تحول الى جولاي . ومن سمت رأسه
انبثقت أشعة من نور ثمين أبيض ، كانت مرئية في كل مكان . نظر الجمهور الى
النور المنبثق فأعلن الجولاي : «المانترا السحري الإلهي هو مظهر روح النور ، ولذلك
كان اسمه ابن بوذا» .

إذا لم نتلق التعليم عن الواعية والحياة ، واكتفينا بترداد صيغ التأمل ببلادة
حس ، لا يمكن أن يتطلع من جسدنا الجولاي ، الذي يجلس في زهرة اللوتس ويشع
نوراً ويظهر في جسدنا الروحي . يقول كثيرون أن تعليم روح النور أمر ضئيل
الاهمية . لكن ، أياكون ضئيل الاهمية ما يتلقاه الإنسان من ملك العالم ؟ بهذا اكون
قد فضحت أعماق أسرار (لانغ - ين) لكي أعلم التلاميذ . ان من يتلقى التعليم بهذه
الطريقة يرتفع رأساً الى السر المظلم ولا يعود ينغمس في رغام الحياة اليومية .

٦ . بخصوص الاحتفاظ بالجسد المتحول

كل فكرة منفصلة تتخلق وتصبح مرئية لوناً وشكلاً
القوة الروحية الكلية تكشف عن آثارها وتتحول الى فراغ

(١) - سورام غاما مانثا (هـ . و) .

عندما نخرج من الكينونة وندخل في العدم نتمم الطاو العجائبي
جميع الأشكال المنفصلة تبدو كالأجساد ، متحدة بمصدر حقيقي

الصورة التي تتعلق بهذا الموضوع هي المشار إليها برقم (٤)

٧ . الوجه الدائر الى الحائط

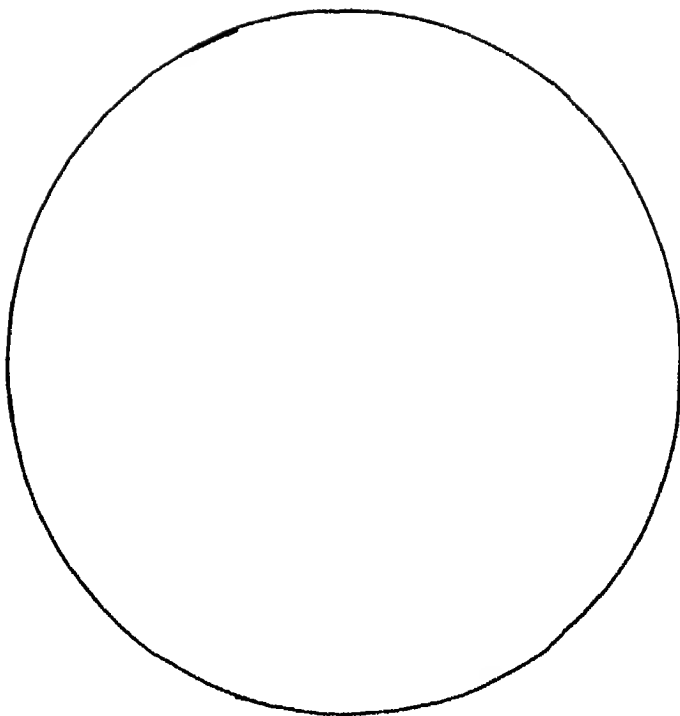
الأشكال التي شكّلتها نار الروح ما هي الا ألوان وأشكال فارغة .
نور الطبيعة البشرية [هينغ] ينعكس على النور البدئي ، الحقيقي .
مُرتسم القلب يطفو في الفراغ ؛ صافياً يشع ضوء القمر .
قارب الحياة يصل الى الشاطئ ؛ ساطعاً يشع نور الشمس .

الصورة التي تتعلق بهذا الموضوع هي المشار إليها برقم (١)

٨ . اللانهاية الفارغة

بلا بداية ، ولا نهاية ،
بلا ماض ، ولا مستقبل .
هالة من نور تحيط بعالم الناموس .
ينسى أحدنا الآخر ، ساكناً وصافياً ، كلنا شديد القوى ، وكلنا فارغ
الفراغ يُضيئه نور القلب والسماء
ماء البحر أملس ومرايا القمر على سطحه .
السحب تتلاشى في الفضاء الأزرق ؛ الجبال تشع وُضاء .
الواعية تعود الى التفكير ؛ قرص الشمس يستريح وحيداً .

الصورة التي تتعلق بهذا الموضوع هي هذه الدائرة :



شرح ك . غ . يونغ

على
كتاب «سر الزهرة الذهبية»

المدخل

١ . صعوبات تواجه الأوروبي عندما يحاول أن يفهم الشرق

لا بد لي الا أن أتناثر تأثراً عميقاً ، وأنا الغربي المشاعر من كل وجه ، بما انطوى عليه هذا النص الصيني من غرابة . صحيح ان شيئاً من المعرفة بالأديان والفلسفات انشرفية يساعدني فكراً وحذساً على فهم الأفكار التي اشتمل عليها الى حد معين ، مثلاً يساعدني علم الإنتولوجيا وتاريخ مقارنة الأديان على فهم تناقضات المعتقدات البدائية . والحق ان هذه هي طريقتنا ، نحن الغربيين ، عندما يعمد أحدنا الى إخفاء قلبه تحت قفطان ما ندعوه بالفهم العلمي . وإننا لنفعل ذلك لسبب يرجع بعضه الى «غرور العلماء البائس» ، الذي يخاف من كل علامة على مشاركة وجدانية وينبذها مذخوراً ، ويرجع بعضه الى أن الفهم الوجداني قد يجعل من اتصالنا بروح غريبة خيرة خطيرة . ان ما ندعوه بالموضوعية العلمية خليق بأن يحفظ هذا النص للعالمين بالصينيات وتدقيقهم الفيلولوجي ، وأن يصونه غيرةً عليه من كل تفسير آخر . لكن ريتشارد ويلهلم ، وهو الذي توغل فيما اشتملت عليه حكمة الصين من

أسرار وحيوية غامضة ، كان أعمق من أن يسمح لهذه الدرّة الثمينة من النفاذ الحُدسي ان تُغيب في وكثات أرباب الاختصاص . ولقد شَرَفني أن يقع اختياره عليّ لكي أتولى شرحه سيكولوجياً .

غير أن هذا يقضي بنا الى خطر ابتلاع اختصاص علمي آخر (وهو علم النفس) لهذا الكثر الفريد . ومع ذلك فإن كل من ينتقص من مزايا العلم والبحث الغربيين فلأما يقوض الدعامة الأساسية التي ينهض عليها العقل الأوروبي . صحيح ان العلم ليس بالأداة الكاملة ، لكنه أداة فائقة ولا غنى عنها ، ولا ضرر منه الا عندما نعتبره غاية في ذاته . المنهج العلمي يجب أن يخدمنا ؛ لكنه يضلّ عندما يغتصب العرش . ويجب أن يكون مستعداً لأن يخدم جميع فروع العلم ، لأن كل فرع من هذه الفروع بسبب ما فيه من نقص يحتاج الى دعم من الفروع الأخرى . العلم أداة العقل الغربي ، بها يستطيع أن يفتح أبواباً أكثر مما يستطيع أن يفتحته باليد المجردة . انه جزء لا يتجزأ من معرفتنا ، وهو لا يُعْمى بصيرتنا الا عندما نعتقد أن الفهم الذي أمَدنا به هو الفهم الوحيد الموجود . أما الشرق فقد علّمنا فهماً آخر ، فهماً أوسع وأعمق وأعلى مرتبة ، أعني به ، الفهم من خلال الحياة . اتنا نعرف هذه الطريقة ، لكن بصورة غامضة ، بما هي مجرد مشاعر ظلية تُحَيِّرناها من المصطلح الديني ؛ ولذلك نتخلص مسرورين من الحكمة الشرقية بعلامات الاقتباس ، وننفيها الى بلاد الإيمان والخرافة الغامضة . لكننا بذلك نُسيء كلياً فهم «واقعية» الشرق . فهذا النص ، مثلاً ، لا يتألف من مشاعر مبالغ فيها ، أو من حُدس صوفي فائق الصنع ، متاخم للمرض النفسي ، أو صادر عن هُوس الزهّاد والنسّاك . بل يقوم على البصيرة العملية التي بلغت العقول الصينية في مرقاة تطورها ، وليس لنا أدنى مبرر للانتقاص منها .

ربما بدا هذا التوكيد جريئاً ، وهو خليق بأن يُقابل بالانكران ؛ لكنه لا يبعث على العجب عندما ننظر الى قلة معلوماتنا عن الموضوع . زد على ذلك ان غرابة الموضوع لتستوقفنا حتى لتغلو حيرتنا من البحث ، كيفيّة وجهة ، عن إمكان انضمام عالم الفكر الصيني الى عالمنا امراً مفهوماً . عندما يواجه الغربي بمشكلة فهم أفكار

الشرق ، يكون خطؤه المعتاد كخطأ التلميذ في «فاوست» . أضله الشيطان ، فأدار ظهره الى العلم احتقاراً ، وأذهلته عن نفسه عوالم الخفاء الشرقية ، واتخذ رياضة اليوغا بصورة حرفية ، حتى أضحى مقلداً يستثير الشفقة . (التيوسوفية خير مثال على هذا الخطأ) . ولذلك يهجر الأساس الامين الذي قام عليه العقل الغربي ، ويضع في ضباب الكلمات والأفكار التي ما كانت لتجد لها في العقل الأوروبي أصلاً ، ولا يمكنها أبداً ان تُطعم به .

قال أحد قدماء الشيوخ : اذا استخدم الرجل غير الصحيح أدوات صحيحة ، نعمل الأدوات الصحيحة بطريقة غير صحيحة . هذه الحكمة الصينية ، الصحيحة تماماً لسوء الحظ ، تقف على الطرف النقيض من إيماننا بالمنهج الصحيح ، بصرف النظر عن الإنسان الذي يطبقه ، والحق انه في هذه المسائل يتوقف كل شيء على الإنسان ، ولا يتوقف شيء ، أو لا يتوقف الا قليلاً ، على المنهج . ذلك لأن المنهج ما هو غير الطريقة ، او الوجهة التي يتخذها الإنسان . فالطريقة التي يعمل بها هي التعبير الحقيقي عن طبيعته . فإذا لم تعد كذلك ، لم يكن المنهج أكثر من تكلف ، أو شيء أضيف اليه بصورة صُنعية ، لا جذوره ولا نَسْج ، ولا يفيد الا باعتباره هدفاً غير مشروع لخداع النفس . وعندئذ يصبح وسيلة لكي يخادع الإنسان نفسه ، وللتهرب مما قد يكون قانون وجوده الصارم . ان هذا ينقلنا بعيداً عن النوعية والإخلاص الذي يتميز به الفكر الصيني المولود من الأرض ، على العكس ، انه نكران وجود الإنسان لنفسه ، وخيانة للنفس لمصلحة آله غريبة وغير نظيفة ، وخدعة جبانة بغرض انتزاع التفوق النفسي ؛ والحق ان كل شيء يتناقض تناقضاً عميقاً مع معنى «المنهج» الصيني . لأن هذه الرؤى نتجت عن طريقة في الحياة كاملة وأصيلة وحقيقية بالمعنى الأتم ؛ رؤى آتية من حياة الصين الثقافية القديمة ، وهي حياة نشأت وثلث ثابتة ومتماسكة عن أعمق الغرائز ، وهي بعيدة عنا ومتعددة على المحاكاة .

التقليد الغربي للشرق مأساوي ضعفين من حيث إنه مُتَّكٍ من سوء فهم غير سيكولوجي ، وعقيم عقم الأعمال الطائشة الحديثة التي تقوم بها في «الطاو» ،

والجزر السعيدة في بحر الجنوب ، وافريقيا الوسطى ، حيث تُمثل البداية بتلهف في لحظة يتهرب فيها الإنسان الغربي من واجباته التي تتهدده . المسألة ليست مسألة أن نقُلّد ، او ما هو أسوأ من التقليد ، أن نصبح مبشرين بما هو غريب عنا عضوياً ، بل مسألة أن نشيّد ثقافتنا الغربية التي تعاني من ألف مرض . هذه الثقافة يجب أن نشيدها ميدانياً ، ويجب أن يقوم بها الاوروبي الحقيقي كما هو في شؤونه العادية ، ومشكلاته الزوجية ، وأمراضه العصبية ، وأوهامه الاجتماعية والسياسية ، وفي توجهاته الفلسفية الخاطئة بكاملها .

ولعلنا نحسن صنعاً لو نعترف على الفور بأننا لا نفهم هذا الانقطاع التام عن العالم الذي يدعو إليه هذا النص ، لا بل لو نعترف بأننا لا نريد أن نفهمه . هل لدينا ، ربما ، ادنى فكرة عن أن موقفاً عقلياً يوجه النظر الى العالم الداخلي الى هذا الحد يستطيع أن يحقق مثل هذا الانقطاع لمجرد أن هؤلاء الناس قد لبّوا مطالبهم الغريزية التي تطالبهم بها طبائعهم تلبية كاملة ، بحيث لا يمنعهم الا القليل ، أو لا يمنعهم شيء أبداً ، عن رؤية جوهر العالم غير المرئي ؟ هل يمكن ، ربما ، أن يكون تحرّروهم من المطامح والأهواء التي تقيدنا الى العالم المرئي مقدمة لهذه الرؤية ، وألا يكون هذا التحرر ناتجاً عن تلبية حسية لهذه المطالب الغريزية بأكثر مما يكون ناتجاً عن كبت قسري لها أو خوف فطري منها ؟ هل صحيح أن عيوننا لا تنفتح على الروح الا عندما نطيع نوااميس الأرض ؟ كل من يعرف تاريخ الثقافة الصينية ، ويدرس بعناية كتاب الـ «آي - تشنغ» ، وهو الكتاب الذي ظل الفكر الصيني مشبعاً به على مدى آلاف السنين ، لا يمر بهذه الأفكار مرّ الكرام ، بل سوف يعرف زيادة على ذلك ان هذه الآراء المبينة في النص الذي بين ايدينا ليست آراء خارقة للعادة من وجهة النظر الصينية ، بل هي فعلاً نتائج سيكولوجية لا مفر منها .

في ثقافتنا المسيحية ، ظلت الروح والعاطفة الروحية رداً طويلاً من الزمن وهي تمثل لنا أعظم القيم وأجدر الأشياء بالسعي وراءها . وما هو الا ان انهارت العصور الوسطى ، أي في مجرى القرن التاسع عشر ، عندما بدأت الروح تنحط

الى العقل ، حتى حدث الرجوع (= رد الفعل) على الطغيان الذي لا يطلق التمثيل بالمذهب العقلي . صحيح ان هذه الحركة ارتكبت في بادىء الأمر خطأ مغفوراً حين خلطت بين العقل والروح ، وراحت تنحي باللائمة على هذه الأخيرة ناسبة اليها ذنوب العقل . والحق أن العقل قد أضرّ بالروح عندما تجرأ وانتزع لنفسه ميراث الروح . فهو غير مؤهل لأن يفعل هذا بأي طريقة من الطرق ، ذلك بأن الروح شيء أعلى من العقل ، لا من حيث اشتغالها على العقل وحسب ، وإنما على المشاعر أيضاً . انها اتجاه الحياة او مبدؤها الذي يسعى الى بلوغ الأعالي المضيئة التي تتجاوز الحد البشري . وفي مقابلها، يقف المبدأ المؤنث (ين) ، المظلم ، المقيد الى الأرض ، بما فيه من انفعالية وغريزية ترجعان الى أعماق الزمان ، والى جذور الاستمرارية الفيزيولوجية . لا شك أن هذه المفاهيم ناشئة عن نفاذ حدسي من البصيرة ، ولا نستطيع الاستغناء عنها اذا أردنا أن نفهم الطبيعة البشرية . الصين لم تستطع الاستغناء عنها لأنها ، كما يبين لنا ذلك تاريخ الفلسفة الصينية ، لم تذهب قط بعيداً عن الحقائق النفسية المركزية بحيث تضع في فرط نموّ أحاديّ أو فرط تقويم لوظيفة نفسية واحدة . ولذلك ما أخفق الصيني قط في التعرف على التناقضات والقطبية الكامنة في كل ما هو حيّ . الأضداد يوازن بعضها بعضاً دائماً - انها علامة على ثقافة عالية . أما الأحادية ، وإن كانت تهبّ عزمًا ، فعلازمة على بربرية . والرجع الذي بدأ الآن في الغرب بالرد على العقل لصالح الشعور ، أو لصالح الحدس ، يدولي علامة على تقدم ثقافي ، وعلى اتساع للواعية الى ما وراء حدود العقل الذي أفرط في استبداديته .

لا أريد أن أقلل من شأن تمايز العقل الغربي ، الذي لوقيس بالعقل الشرقي لهذا الأخير طفلاً (واضح أن هذا لا علاقة له بالذكاء) . لو نوق في رفع وظيفة نفسية أخرى ، او حتى ثلاثة ، الى المنزل التي نوليها للعقل ، اذن لتوقنا من الغرب أن يتخطى الشرق بهامش كبير . ولذلك يحزننا أن يتخلّى الأوروبي عن طبيعته ويعمد الى تقليد الشرق او «يتكلفه» بكل وسيلة . ولعل الإمكانات المفتوحة أمامه

كانت أعظم بكثير لو أنه ظل صادقاً مع نفسه وطوّره في طبيعته الخاصة كل ما جاء به الشرقي نابعاً من كينونته الداخلية على مرّ القرون .

عموماً ، لو نظرنا الى الأشياء التي يمنحها الشرق قيمة عالية من وجهة نظر العقل الخارجية التي لا شفاء لنا منها ، لبدت لنا أموراً لا نرغب فيها . العقل وحده لا يستطيع ابتداءً أن يقدر الأهمية العملية التي قد تتمتع بها الأفكار الشرقية بالنسبة لنا ، وهذا ما يجعلنا نصنفها تحت باب الغرائب الفلسفية والتكنولوجية ولا شيء أكثر من ذلك . ان افتقارنا للإحاطة والفهم يذهب بنا بعيداً الى حد أن العلماء المختصين بالثقافة الصينية لم يفهموا التطبيق العملي لكتاب (آي تشنغ) ، فاعتبروه مجموعة من التعويذات السحرية المبهمة .

٢ . علم النفس الحديث يتيح إمكانية الفهم

ان ما درّسته من ملاحظات في أثناء ممارستي المهنية فتح لي آفاقاً جديدة لفهم الحكمة الشرقية لم تكن متوقعة من قبل . لكن يجب أن يكون مفهوماً جيداً انني لم أكن أعرف ، ولو معرفة ضئيلة ، شيئاً عن الفلسفة الصينية كنقطة ابتداء . على العكس ، عندما بدأت حياتي العملية في ممارسة الطب والعلاج النفسيين ، كنت اجهل جهلاً تاماً كل شيء عن الفلسفة الصينية . ولم تُظهر لي خبرتي المهنية الا في وقت لاحق انني كنت في تقائيتي مقوداً من حيث لا أدري للسير على الطريق السري الذي ظل الشغل الشاغل لخيرة العقول في الشرق على مرّ القرون . ولعل هذا كان يعتبر من قبيل الولوع بالذات ، وقد كان هذا في جملة أسباب عزوفي عن نشر شيء عن الموضوع ، الى ان جاء يوم التقيت فيه ريتشارد ويلهلم ، ذلك المفسر العظيم للنفس الصينية ، فأكد لي التوازي تأكيداً تاماً . وبذلك منحني الشجاعة على الكتابة عن النص الصيني الذي يرجع كلفة الى الظلال الخفية من العقل الشرقي وفي نفس الوقت ، وهذا هو الشيء الخارق للعادة ، كان في محتواه موازياً حياً لما يحدث في النمو النفسي لدى مرضاي ، الذين لم يكن ولا واحد منهم صينياً .

ولكي أجعل هذه الحقيقة الغربية مفهومة للقارىء ، يجب علي أن أشير الى انه كما ان الجسم البشري يُبدي عن صفات تشريحية مشتركة تتجاوز الفروق العرقية ، كذلك تمتلك النفس طبقة سفلية تتعدى جميع الفروق في الثقافة والوعي . ولقد دعوت هذه الطبقة السفلية الخافية الجامعة Collective Unconscious . هذه النفس الخافية ، المشتركة بين النوع البشري ، لا تتكون من مجرد محتويات قابلة للصيرورة في الواعية ، بل من استعدادات كامنة للقيام برجوعات (= ردود أفعال) معنية متماثلة . وبذلك تكون حقيقة الخافية الجامعة مجرد تعبير عن وحدة البنية العقلية بصرف النظر عن جميع الفروق العرقية . وهذا يفسر الشبه ، وأحياناً الوحدة ، بين مختلف الموضوعات الرئيسية التي انطوت عليها الأساطير والرموز وإمكانية الكائنات البشرية للتفاهم فيما بينهم . ان مختلف خطوط التطور النفسي تبدأ من أرومة مشتركة ترجع جذورها الى جميع طبقات الماضي . ان هذا يفسر أيضاً التوازيات السيكلوجية مع الحيوانات .

معنى ذلك ، من الناحية السيكلوجية البحتة ، ان البشرية كلها تشترك في غريزتي التخيل والفعل . فكل تخيل وفعل شعوري انما يتطور على أساس من الصور البدئية غير الشعورية ، ويظل مرتبطاً بها دائماً . وتكون هذه هي الحال خصوصاً عندما تبلغ الواعية درجة عالية من الوضوح ، أي عندما تعتمد في جميع وظائفها على الغرائز أكثر من اعتمادها على الإرادة الواعية ، وعندما تحكمها العاطفة أكثر مما يحكمها الاستنتاج العقلي . هذه الحال تضمن للنفس صحة بدائية ما ثبت أن تصبح نقصاً في التكيف ما إن تنشأ ظروف تتطلب جهداً معنوياً أكبر . الغرائز لا تكفي غير الإنسان الذي يفترض الطبيعة التي تبقى دائماً هي في مجملها . ولذلك يميل الإنسان الذي تقوده الخافية (= اللاشعور) أكثر مما يقوده الخيار الواعي ، يميل الى محافظة نفسية محددة . وهذا هو السبب الذي يجعل البدائيين لا يتغيرون على مدى آلاف السنين ، وهو أيضاً السبب الذي يجعلهم يخافون كل شيء غريب وخارج عن المؤلف . فقد يؤدي بهم الى سوء تكيف ، وبالتالي الى أشد المخاطر النفسية ، الى نوع من العصاب في الحقيقة . أما الواعية الأعلى والأوسع ، التي لا تأتي الا نتيجة

لتمثل غير المألوف ، فتميل الى الاستقلال ، والثورة على الآلهة القديمة التي ما هي الا الصور البذئية القوية العاملة في الخافية التي ما برحت تستبعد الواعية .

كلما قويت الواعية واستقلت ، وأصبحت معها الإرادة الواعية كذلك ، اضطرت الخافية الى الانكفاء الى الخلف . عندما يحدث هذا ، يسهل على البنى الواعية أن تنفصل عن النماذج البذئية الخافية . بهذه الحرية المكتسبة ، تحطم الواعية قيود مجرد الغريزية وتصل في النهاية الى حالة حرمان من الغريزة أو مضادة لها ، فتتفصل عن جذورها ولا تعود قادرة على الاستجابة لسلطان الصور البذئية . صحيح أنها تنال حرية بروميثيوس ، لكنها تكتسب غروراً شيطانياً . والحق انها تحلّق فوق الأرض ، بل حتى فوق البشرية ، لكن خطر الانقلاب الى الطرف المضاد مائل ثمة ، لا بالنسبة للأفراد بل بالنسبة لجميع الأعضاء الضعفاء في مثل هذا المجتمع ، ما يلبثون أن يعودوا ثانية الى وضعية بروميثيوس ، مصفدين بالاغلال الى جبال القوقاز من قبل الخافية . لمثل هذه الحالة تقول الحكمة الصينية في كلمات الـ (آي تشنغ) : «عندما يبلغ يانغ (النور) أقصى قوة له ، تولد في أعماقه قوة ين المظلمة ، ذلك بأن الليل يبدأ في الظهيرة ، عندما يتشقق يانغ (النور) ويبدأ بالتحول الى ين (الظلام)» .

ان الطيب في وضع يسمح له أن يرى هذه التقلبات تحدث حرفياً في الحياة ، فهو يرى ، مثلاً ، رجل أعمال ناجحاً يحقق جميع طموحاته غير عابىء بالأخطار ، ثم ما يلبث بعد أن يتوقف عن النشاط وهو في ذروة نجاحه حتى يقع فريسة للعصاب الذي يحيله الى امرأة عجوز دائمة الشكوى والتذمر ، ويقيده الى فراشة ، ويحطمه نهائياً . ان الصورة لمي من التمام بحيث يتحول فيها موقف مذكر من الحياة الى موقف شبه نسوي . ان الموازي التام لهذه الحالة اسطورة نبوخذ نصر في سفر دانيال ، والجنون القيصري عموماً . ان احوالاً مماثلة للمغالاة الأحادية في المنطلق الواعي ، وما يناسبه من رجوع «ين» يأتي من قبل الخافية ، لا تشكل جزءاً صغيراً من ممارسة أطباء النفس في زماننا هذا الذي أفرط في تقدير قيمة الإرادة الواعية الى حد الإيمان بأنه «حيثما وجدت إرادة» فثمة طريق ، لا أريد بذلك الانتقاص مما

ان النص الذي بين أيدينا معنيّ بهذه الطريقة ، وهذه المشكلة نفسها هي ما يواجهه مريضاي أيضاً . ولعل من أفدح الخطأ ان يعمد غربي الى ممارسة اليوغا الصينية رأساً ، لأنها تصبح عندئذ مسألة وعي وإرادة ، فلا يكون من شأنها غير تقوية واعية على حساب الخافية (= اللاشعور) ، مما ينجم عنه نفس الأثر الذي كان عليه أن يتجنبه . ويكون من شأن ذلك أيضاً أن يتفاقم معه العصاب . لا يكفي أن نؤكد بقوة اننا لسنا شرقيين ، وان لنا - بالتالي - نقطة انطلاق تختلف كلياً فيما يتعلق بهذه الأشياء . كذلك لعل من فادح الخطأ ان نذهب الى أن هذا الطريق هو ما يجب على كل معصوب أن يسلكه ، او أن هذا الحل هو ما يجب أن ننشده في كل مرحلة من مراحل المشكلة العصابية . ان هذا الطريق لا يناسب غير المرضى الذين بلغ منهم نمو الوعي مبلغ الإفراط ، فابتعدوا عن الخافية الى أكثر مما يجب ان هذه الدرجة العالية من الوعي هي الشرط اللازم الذي لا بدّ منه . لا شيء أفدح خطأ من أن نفتتح هذا الطريق للمعصوبين الذين اعتلوا بسبب رجحان في الخافية عندهم في غير محله . لنفس السبب ، هذا الطريق من النمو لا معنى له قبل منتصف العمر (بين سن الثلاثين والأربعين) ، ولو وَجَّهناه قبل الأوان ، لأورثنا الأذى لا محالة .

مثلاً بينت من قبل ، كان دافعُ البحث عن طريق جديد ما بدا ان المشكلة الأساسية التي تواجه المريض غير قابلة للحل الا بإيذاء جانب آخر من طبيعته ، لقد عملت دائماً بقناعة مزاجية انه ما من مشكلة لا حل لها في الأساس ، وقد سوَّغت لي الخبرة هذا الاعتقاد بمقدار ما شاهدت أشخاصاً ونموا عن مشكلة كانت سبباً في دمار آخرين ، فلم تدمرهم . هذا «النمو عن» ، كما دعوته سابقاً وأثبتت لي الخبرة ، كان قوامه مستوى جديداً من الوعي ، اهتماماً من نوع ما أعلى أو أوسع يطلع في أفق الإنسان ، ومن خلال هذا الاتساع في نظرتة تفقد المشكلة العويصة صفة الإلحاح . لم تُحلْ منطقياً بشروطها هي ، بل خبا أو أوارها عندما واجهها المريض بميل جديد للحياة أشدّ وأقوى . لم يكتبها المريض ولم تنسرب الى خافيته ، بل كل ما هنالك انها بدّت في ضوء مختلف ، فأصبحت شيئاً مختلفاً فعلاً . على مستوى أدنى . ان ما أدى الى المنازعات البالغة الممجية والانفجارات العاطفية المذعورة ، منظوراً إليه من

المستوى الأعلى من الشخصية ، بدا الآن كعاصفة في الوادي تُشاهد من أعلى ذروة الجبل . ان هذا لا يعني أن العاصفة الرعدية سُلبت حقيقتها ، لكن بدلاً من أن نكون في قلبها ، نصبح الآن فوقها . لكن بما اننا نحن الوادي والجبل كلاهما من ناحية النفس ، لن يكون من عبث الوهم أن نشعر اننا فوق ما هو بشري . يقيناً اننا نشعر بالادعاء وهو يزلزلنا ويعذبنا ، ومع ذلك وفي نفس الوقت نكون على علم بواجبة أعلى تتمتعنا من التواجد بالادعاء ، فتعامل معه موضوعياً ، بحيث نستطيع ان نقول : «اعلم لي اعاني» ما يقوله النص الصيني عن الكسل (بين الكسل الذي نشعر به والكسل الذي لا نشعر به مسافة ألف ميل) يصدق أيضاً على أعلى درجات الادعاء .

في أثناء ممارستي كان يحدث هنا وهناك ان ينمو مريض عن نفسه بسبب امكانات غير معروفة ، ويصبح هذا النمو بالنسبة لي خبرة ذات أهمية من الدرجة الأولى . وكنت تتلمست في غضون ذلك ان اعظم مشاكل الحياة وأهمها هي كلها بمعنى ما غير قابلة للحل . يجب ان تكون هكذا لأنها تعبر عن الاستقطاب الضروري الكامن في كل نظام تعديلات ذاتي . لا يمكنها ان تُحل أبداً ، بل يمكن النمو عنها فقط . لذلك سألت نفسي ان كانت هذه الإمكانية من النمو ، أي المزيد من النمو النفسي ، ليست هي الشيء الطيب ، وأن الشيء المرُضي هو - بالتالي - ما ظل عالقاً في نزاع . كل واحد منا يجب ان يمتلك هذا المستوى الأعلى من النمو ، على الأقل في حالة جينية ، ويجب أن يكون قادراً في ظروف ملائمة على تنمية هذه الإمكانية . ولما فحصت طريقة النمو عند هؤلاء الأشخاص الذين نموا عن انفسهم بصورة هادئة ، كما لو كانت غير شمولية ، رأيت ان اقدارهم كان فيها شيء مشترك . . الشيء الجديد طلع اليهم من الإمكانيات الخفية ، اما من خارج نفوسهم أو من داخلها ؛ قبلوا به وزادوا به نمواً . ولقد بدا لي شيئاً غموضياً أن يتناول بعضهم الشيء الجديد من خارج نفسه ، وأن يتناول بعضهم الآخر من داخلها . لكن الشيء الجديد لم يأت قط إما من الداخل أو من الخارج حصراً . فإذا طلع من الخارج ، أصبح خبرة ذاتية بعمق ؛ وإذا طلع من الداخل ، أصبح حادثاً خارجياً . ولم يحدث أبداً لدى مريض أن جيء

بالشيء الجديد بالقصد والإرادة الواعية ، بل كان أكثر ما يبدو أنه يولد في مجرى الزمن .

كثيراً ما نفع تحت اغراء تحويل كل شيء الى قصد ومنهج حتى لقد عبر عن نفسي عامداً باصطلاحات مجردة جداً لعلّي أتجنب دفع سابق حكم في اتجاه أو آخر . الشيء الجديد يجب ألا نصنفه تحت أي باب ، لأنه عندئذ يصبح وصفة تطبق ألياً فتعود القضية قضية «الأداة الصحيحة» بيد الإنسان غير الصحيح . وكنت أعجب أشد العجب من أن الشيء الجديد الذي يقدمه القدر قلما يتفق مع التوقع الواعي ، وإن كان يتناقض مع الغرائز العميقة الجذور تناقضاً شديداً ، إلا أنه كان تعبيراً مناسباً بصورة فذة عن مجمل الشخصية ، تعبيراً لا نستطيع أن نتصور خيراً منه .

ماذا فعل هؤلاء حتى بلغوا النمو الذي حرّهم ؟ الى حدّ ما استطعت رؤيته انهم لم يفعلوا شيئاً (Wu Wei) ^(١) ، بل تركوا الأشياء تحدث ، كما يعلمنا المعلم لو- تسو في هذا النص ، النور يدور وفقاً لقانونه الخاص اذا لم يتخلّ المرء عن شغله العادي . ان فن ترك الأشياء تحدث ، الفعل بالامتناع عن الفعل ، أن يترك المرء نفسه على سجيتها ، كما علّم ذلك المعلم اكهارت ، قد أصبح عندي مفتاح الباب الذي يؤدي الى الطريق . يجب أن نكون قادرين على ترك الأشياء تحدث في النفس . الواعية أبداً تتدخل وتساعد وتصحح وتنفي ولا تترك أبداً لسياقات النفس ان يجري نموها البسيط في سلام . وقد يكون الأمر من البساطة بمكان لو لم تكن البساطة أصعب الأشياء جميعاً . اذن ، فلنبداً ، تتكون المهمة حصراً من مراقبة موضوعية لفلذة من خيال طليق Fantasy في نموها . لا شيء أسهل من ذلك ، ومع ذلك فإن الصعوبة تبدأ ههنا تماماً . لا فلذة من خيال طليق يبدو أنها تظهر- او بل ، تظهر واحدة- لكنها مفردة في الغباء- ماثت الأسباب القوية تمنعها . لا نستطيع أن نجتمع

(١)- الفعل بالامتناع عن الفعل (ك . ف . ب) .

ذهننا عليها - منزلة في الإملال - الى ماذا تريد أن تصل - انها «لا شيء إلا» ، الخ . العقل الواعي يرفع اعتراضات كثيرة ، لا بل هو غالباً ما يميل الى طمس نشاط التخيل الطليق العقوي بالرغم من التبصر الحقيقي ، حتى ولو عن عزيمة صادقة من جانب الشخص على السماح للسياقات النفسية ان تمضي قدماً بدون تدخل . غالباً ما يوجد عائق حقيقي من الواعية .

اذا نجحنا في التغلب على الصعوبات الأولية ، يظل النقد خليقاً بأن يبدأ بعد ذلك وأن يحاول تفسير التخيل الطليق أو تصنيفه او إجماله او التقليل من شأنه . ويكاد الإغراء بأن نفعل ذلك لا يقاوم . بعد المراقبة التامة والمخلصة ، يمكننا أن نطلق العنان لنناذ صبر العقل الواعي ؛ والحق اننا يجب أن نطلق له العنان ، وإلا تمت المقاومات لعائقة . لكن ، كلما نتج خيال طليق ، كان علينا أن نطرح نشاط الواعية جانباً .

في أكثر الحالات لا تكون نتائج هذه الجهود مشجعة جداً في بادئ الأمر . فهي تتكون في العادة من نسيج من الخيالات الطليقة لا تمدها بمعرفة عن أصلها وعن غايتها . كذلك تختلف طريقة الوصول الى هذه الخيالات بين فرد وآخر . فقد يكون أسهل على كثير من الناس كتابتها ، بينما تراءى لآخرين فيرونها . ويرسمها آخرون عن رؤية لها لو عن غير رؤية . وفي حالات يكون فيها الوعي مقيداً الى درجة عالية ، غالباً ما تكون الخيالات الطليقة من فعل اليدين ، تصميمان او ترسمان أشكالا غالباً ما تكون غريبة على العقل الواعي .

يجب الماضي في هذه التمارين حتى تراخي قبضة العقل الواعي ، أو بعبارة أخرى ، حتى نستطيع أن ندع الأشياء تحدث من تلقاء نفسها ، وهي الأشياء التي كانت الهدف المباشر من هذه التمارين . بهذه الطريقة يخلق موقف جديد ، وهو موقف نتقبل فيه ما هو غير عقلي وما هو غير مفهوم ، لا شيء إلا لأنه ما يحدث . وقد يكون هذا الموقف سبباً زعافاً بالنسبة لشخص قد سيطرت عليه أشياء تحدث لتوها ، ويكون له أعلى قيمة بالنسبة لشخص آخر لا يتخير ، في نقد واسع حصراً ،

الا الأشياء التي تتقبلها واعيته من بين الأشياء التي تحدث ، فينسحب تدريجياً من مجرى الحياة نحو الماء الخلفي الراكد .

عند هذه النقطة ، ينفصل الطريق الذي سافر عليه كل من النموذجين المذكورين . كلاهما تعلم أن يقبل ما يحدث له . (كما يعلم المعلم لو-تسو : «عندما تأتي إلينا المشاغل يجب أن نتقبلها ؛ عندما تأتي إلينا الأشياء يجب أن نفهمها من الأساس») . أحدهما يأخذ ما يأتي إليه من الخارج ، والآخر ما يأتي إليه من الداخل . وطبقاً لقانون الحياة ، الأول عليه أن يأخذ من الخارج شيئاً ما كان بمقدوره من قبل أن يقبله من الخارج ، والآخر يقبل أشياء من الداخل كان دائماً يستبدها من قبل .

هذا الانقلاب في كيان الشخص يعني توسيعاً للشخصية وإعلاء لها وإغناء ، إذا احتفظت بالقيم السابقة إلى جانب التغيير الحاصل ، شريطة ألا تكون هذه القيم مجرد أوهام ، طبعاً . أما إذا لم يحتفظ الإنسان بالقيم ، فإنما ينتقل إلى الطرف الآخر ، من الملاءمة إلى عدم الملاءمة ، من التكيف إلى عدمه ، من المعنى إلى اللغو ، بل حتى من العقلانية إلى الاضطراب العقلي . الطريق ليس بدون أخطار . كل شيء حسن فبإحفظ الكلفة ، ونمو الشخصية من أبهظ الأشياء كلفة . أنه مسألة أن يقول «نعم» لنفسه ، أن يأخذ نفسه على أنها أخطر المهام ، أن يكون شاعراً بكل شيء يفعل ، وأن يضعه دائماً نصب عينيه في جميع جوانبه الباعثة على الشك - حقاً أنها لمهمة تبهظ كاهلنا إلى أقصى حد .

الصيني يستطيع أن يتكيف إلى الخلف معتمداً على مرجعية ثقافته برمتها . فإذا شرع في السير على الطريق الطويل فهو يفعل ما يعترف بأنه خير الأشياء التي يستطيع أن يفعلها . لكن الغربي الذي يرغب في السير على هذا الطريق ، إن كان جاداً حقاً ، فكل مرجعية يريد الاعتماد عليها ، فإنما تقف ضده . ثقافياً وأخلاقياً وديناً . وهذا ما يفسر لنا لماذا كان أمراً في غاية اليسر عليه أن يقلد الطريقة الصينية ، ويهجر الطريق الأوروبي المحفوف بأسباب القلق والاضطراب ، أو ينشد

العودة الى الكنيسة المسيحية في القرون الوسطى ، ويشيد مرة أخرى السور
الاوروبي الذي بفضل به المسيحيين الحقيقيين عن الكفار المساكين والغرائب
الانتوغرافية التي تقيم في الخارج . مغازلات جمالية أو فكرية مع الحياة والقدر تأتي
الى نهاية مفاجئة هنا . الخطوة الى واعية أعلى تفضي الى الخارج . ويعيداً عن حماية
جميع حرس المؤخر ، وعن جميع تدابير السلامة . يجب على الإنسان أن يُسلم نفسه
للطريق الجديد كلية ، لأنه لا يمكنه المضي في الطريق الا بسلامته . بسلامته فقط
يستطيع أن يضمن ألا ينقلب هذا الطريق الى مغامرة عابثة .

سواء اكان ندر الإنسان آتيا من الخارج أم من الداخل ، تظل اختبارات
الطريق والحوادث فيه هي هي . لذلك لا حاجة بي الى قول شيء عن الحوادث
الخارجية والداخلية الكثيرة ، ولا عن التنوعات التي لا نهاية لها ولم أستطع أبداً ان
آتي عليها جميعاً ، في كل حال . زد على ذلك انني لو فعلت لما كان لذلك صلة
بالنصر موضوع هذه الدراسة . لكن ثمة الكثير مما يقال عن الأحوال النفسية التي
تصاحب المزيد من النمو . هذه الأحوال النفسية يعبر عنها النص رمزاً ، ويستخدم
نفس الرموز التي ألفتها في أثناء ممارستي المهنية طوال العديد من السنين .



المفاهيم الأساسية

١ . الطاو

ترجع الصعوبة الكبيرة التي يلاقيها العقل الأوروبي في تفسير هذا النص وأمثاله الى أن المؤلف الصيني يبدأ دائماً من النقطة المركزية ، من النقطة التي نسميها الغرض أو الغاية ؛ بكلمة واحدة ؛ بالنفاذ الى النهاية التي يسعى للوصول اليها . وبذلك يبدأ المؤلف الصيني عمله بأفكار تتطلب من الفهم الشمولي ما يجعل شخصاً ذا عقل مميز يشعر بالذنب بدعوى سخيفة او حتى بالنطق بلغو فارغ ، لو أنه اعتمد المنطق العقلي في درس الاختبارات النفسية اللطيفة التي اختبرتها أعظم العقول في الشرق . فمثلاً يبدأ النص بـ «ما هو موجود بنفسه يسمى الطريق (الطاو)» ، وكتاب (هوي مينغ تشنغ) يبدأ بهذه الكلمات : «الطبيعة البشرية والحياة هما أخفى أسرار الطاو» .

ان العقل الغربي يفتقر الى مفهوم للطاو . والحرف الصيني الذي يدل على الطاو هو الحرف الذي يدل على «الرأس» ، وعلى «الذهاب» . ان ويلهلم يترجم

إذا اعتبرنا الطاو المنهج أو الطريقة الواعية التي يتصل بواسطتها ما هو منفصل ، فلعلنا ندنو قريباً من المضمون السيكلوجي للمفهوم . على كل حال ، ان انفصال الوعي عن الحياة لا يمكنه أن يعني غير ما تقدم وصفه بأنه ضلال الواعية او اقتلاع لها من جلورها . كذلك ان تحقيق الضد الخبيء في الخافية ، أي «الانقلاب» ، لا شك أن معناه عودة الاتحاد بقوانين الكائن غير الشعورية ، والغرض من هذا الاتحاد الثاني هو الوصول الى الحياة الواعية ، أو بحسب التعبير الصيني إتمام الطاو .

٢ . الحركة الدائرية والمركز

كما بينت سابقاً ، ان اتحاد الأضداد على صعيد أعلى من الوعي ليس شيئاً عقلياً ، ولا هو مسألة إرادة ، بل سياق نفسي للنمو يعبر عن نفسه بالرمز . تاريخياً ، كان هذا السياق يتمثل دائماً بالرموز ، واليوم ما زال نحو شخصية الفرد يعبر عن نفسه في أشكال أو صور رمزية . وقد تكشفنا لي هذه الحقيقة من الملاحظات التالية : نواتج التخيلات العفوية الطفلية Fantasies التي أشرنا إليها قبل قليل تتعمق وتتجمع تدريجياً حول «بنى مجردة تمثل» مبادئ ، أو ما يسميه الغنوصيون «أزكاي» archai . عندما نعبر عن هذه التخيلات رئيسياً بواسطة الأفكار ، تكون النتائج صيغاً حدسية من مبادئ أو قوانين نشعر بها شعوراً غامضاً ، تميل في بادئ الأمر الى أن تأخذ شكل الدراما أو الى التشخيص (سوف نعود الى هذه النقطة فيما بعد) . فإذا عبرنا عن هذه التخيلات بالرسوم ، ظهرت رموز من النوع الذي نسميه بنموذج المنذلة . والمنذلة هي الدائرة ، والدائرة السحرية تخصيصاً . وهذا الرمز لا يوجد في الشرق وحسب ، وإنما نجده بيننا أيضاً . وقد كانت المنادل تمثل على نطاق واسع في القرون الوسطى . وقد كانت أوائل العصور الوسطى غنية بالمنادل المسيحية على وجه الخصوص ، وكان معظمها يُظهر المسيح في المركز ، ومعه الإنجيليون الأربعة أو رموزهم في الجهات الأصلية الأربع . ولا بد أن يكون هذا المفهوم قديماً جداً ،

ذلك أن المصريين كانوا يمثلون حورص ومعه أبنائه الأربعة بنفس الطريقة (والمعروف أن لحورص وأبنائه الأربعة صلة وثيقة بالمسيح والإنجيليين الأربعة) . وقد وُجدت فيها بعد في كتاب ليعقوب بومه عن الروح مندلة لا يمكن أن نخطئها وباعثة على الاهتمام لما لها من صلة واضحة بنظام نفسي - كوني شديد التأثير بالأفكار المسيحية ، يسميها بومه «العين الفلسفية» ، أو «مرآة الحكمة» التي تعني المعرفة الخفية . وتتخذ المندلة ، في الأعم لأغلب شكل الزهرة أو الصليب أو الدولاب ، مع ميل واضح الى المندلة الرباعية . (وهذا يذكرنا بالرباع ، العدد الأساسي في النظام الفيثاغوري) . وانا لنجد أيضاً مناديل هذا النوع في الرسوم الرمزية التي يستعملها البوابلو وهنود «نافاهو» في احتفالاتهم . لكن أجل المناول على الإطلاق مناديل الشرق ، ولا سيما مناديل البوذية التبتية . وقد تمثلت الرموز التي اشتمل عليها النص الصيني (الذي بين أيدينا) بمناديل ثلاث . كذلك وجدت رسوماً للمندلة بين المرضى عقلياً ، وبين أشخاص لم يكن لهم أدنى فكرة عن الصلوات التي بحثناها .

وقد وجدت بين مرضاي نسوة لم يكن يرسمن المندلة ، بل يُرقصنها ويسمي هذا النموذج من المندلة في الهند بـ «مندلة نرثيا» ، أي مندلة الرقص ، وتعتبر الرقصة عن نفس المعنى الذي يعبر عنه الرسم . ولم يكن يستطيع مرضاي أن يقولوا غير القليل عن معنى الرموز التي كانوا يرسمونها ، لكنهم كانوا يُفتنون بها ويجدونها معبرة عن حالتهم النفسية ومؤثرة ، فيها على نحو أو آخر .

يعدنا النص الصيني ان «يكشف عن سر الزهرة الذهبية للواحد العظيم» فالزهرة الذهبية هي النور ، ونور السماء هو «الطاو» . الزهرة الذهبية رمز للمندلة ، وهي رمز كثيراً ما صادفته في المادة التي كان مرضاي يأتون بها الي . وهي إما أن تكون مَرتبة من أعلى كتزيين هندي نظامي ، أو كزهرة طالعة من نبات . والنبات غالباً ما يكون تركيباً من ألوان صارخة نارية تطلع من قاعدة من الظلمة وتنقل زهرة النور الى القمة ، وهو رمز شبيه بشجرة عيد الميلاد . كذلك يعبر رسم من هذا النوع عن أصل «الزهرة الذهبية» . فبحسب كتاب (هوي منغ تشنغ) ليست «الحويصلة الأصلية أو الجرثومية» غير «القلعة الصفراء» ، أو «القلب السماوي» أو

«مصطبة الحياة» أو ، «الحقل ذي الإنش المربع في البيت ذي القدم المربعة» ، أو «القاعة الارجوانية في مدينة الشب» ، أو «تين القلعة في قاع البحر» . كذلك نسمى تخم اقليم جبال الثلج أو «الممر الأولي» أو «ملكة الفرح الأكبر» ، أو البلاد التي لا حدود لها ، أو المذبح الذي يخلق عليه الوعي والحياة . وقد جاء في كتاب (هوي منغ تشنغ) : «إذا لم يعرف الإنسان الفاني هذه الحويصلة الأصلية ، فلن يستطيع ان يوحد الوعي والحياة ولو في ألف ولادة او في عشرة آلاف دهر» .

انما تكمن البداية التي لا يزال فيها كل شيء شيئاً واحداً ، والتي تبدو الهدف الأعلى تبعاً لذلك ، تكمن في قاع بحر ظلام الخافية (= اللاشعور) . في الحويصلة الأصلية أو الجرثومية ، يكون الوعي والحياة (الطبيعة البشرية والحياة ، هسغ - منغ) ما يزالان في حالة وحدة ، ومرتجين امتزاجاً يتعذر معه الفصل بينها كالشرر في أنون التقطير ، «في قلب الحويصلة الأصلية نجد نار الملك» ، «جميع الحكماء يبدوون عملهم بالحويصلة الأصلية» . لاحظ تشبيهات النار . اعرف سلسلة من رسوم مندلة أوروية فيها شيء مثل حبة من نبات يحيط بها غطاؤها وتبدو طافية على الماء ؛ ومن الأعماق ينميتها تسرب النار ويجعلها تشكل زهرة ذهبية كبيرة من قلب الحويصلة الجرثومية .

تشير هذه الرمزية الى نوع من السياق السيميائي به تتم عملية التنقية وتُضفى صفة النبالة ؛ الظلمة تلد النور ؛ من «رصاص اقليم الماء» يطلع الذهب الشريف ؛ ما هو خافي (= غير شعوري) يصبح واعياً في شكل سياق الحياة والنمو (اليوغا كُنداليني الهندوكية تقدم شياً تاماً) . بهذه الطريقة تتحد الواعية والحياة .

عندما كان مريضاً ينتجون مثل هذه الصور المندلية ، لم يكونوا يفعلون ذلك تحت تأثير الإيحاء ؛ فقد كانت صور مماثلة لها موجودة قبل زمن طويل من معرفتي لعناها أو صلتها بالرياضيات الشرقية التي كانت يومئذٍ أمراً غير مألوف لي على الإطلاق . فقد كانت هذه الصور تأتي عفوية ومن مصدرين . احدهما الخافية (= اللاشعور) التي كانت تطلق مثل هذه التخيلات بصورة تلقائية ، والثاني هي الحياة

التي لو عشناها بمحبة تامة لأمدتنا بحدس النفس self ، الكائن المفرد . ان معرفة النفس الفردية تعبر عن نفسها بالرسم ، بينما تفرض الخافية علينا حب الحياة . ذلك ان رمز المندلة ، وهذا يتفق تماماً مع المفهوم الشرقي ، ليس وسيلة للتعبير وحسب ، وإنما لإحداث أثر أيضاً . انه يقوم بالرد على خالقه . ان آثاراً سحرية قديمة جداً تنبع خبيثة في هذا الرمز لأنه يستمد وجوده أصلاً من «الدائرة المحيطة» ، «الدائرة المسحورة» ، والسحر الذي ما زال يحتفظ به عدد لا حصر له من العادات الشعبية . والغاية من الصورة هي رسم خندق سحري حول المركز ، أو «تيمونوس» (سياج مقدس) ، حول الشخصية الأعمق ، للحيلولة دون «الجريان الى الخارج» ، او لوقايتها برقى وتعاويز من أن تندلق بفعل المؤثرات الخارجية . الممارسات السحرية ليست غير إسقاطات للحوادث النفسية ، تطبق هنا بالمقلوب على النفس ، كما لو أن الإنسان يمارس تأثيراً سحرياً على نفسه . أي ان الانتباه او بالأحرى الاهتمام ، ينكفيء الى داخل الحرم المقدس ، الذي هو ينبوع الروح وهدفها ، الذي يحتوي على وحدة الحياة والوعي ، تلك الوحدة التي ما إن امتلكنها حتى أضعناها ، وبات لزاماً علينا ان نجدها ثانية .

ان وحدة الحياة والوعي هي الطاو ، الذي يرمز إليه بالنور الأبيض المركزي . هنا النور يسكن في «الإنش المربع» ، أو في «الوجه» ، أي بين العينين . انه صورة النقطة المبدعة ، نقطة لها كثافة بلا امتداد ، يُعتقد انها متصلة بفراغ «الإنش المربع» ، وهو رمز لما له امتداد . الاثنان ، مجتمعين ، يكونان الطاو . الطبيعة البشرية (همنغ) والوعي (هوي) يعبر عنها برمزية النور ، وهما الكثافة بالتالي . بينا الحياة (منغ) تتفق مع الامتداد . الأولى لها صفة مبدأ النور (يانغ) ، والثانية لها صفة مبدأ الظلام (ين) . والمندلة المذكورة اعلاه ؛ التي تمثل الفتاة المسرَّمة* ، ذات الخمسة عشر عاماً ، التي كنت وضعتها تحت المراقبة قبل ثلاثين عاماً ، يظهر في مركزها

* السَّرَّمة (= السير في النوم) نحت وضعه صاحب «المورد» ترجمة لكلمة Somnambulism .

«ينبوع طاقة الحياة» بدون امتداد ، وتصطدم بما ينبعث منها مباشرة مع مبدأ الفراغ المضاد - هذه المتدلة تشبه شبيهاً تماماً الفكرة الأساسية التي اشتمل عليها النص الصيني .

«السياج» ، يُعبر عنه في النص بفكرة «الدوران» . و«الدوران» ليس مجرد حركة في دائرة ، بل هو أداة لرسم السياج المقدس من ناحية ، وللتثيت والتركيز من ناحية ثانية . دولاب الشمس يبدأ بالدوران ، أي أن الشمس قد دبّت فيها الحياة ، (أو أصبحت كائناتاً حياً) animated ، وبدأت تأخذ مجراها . أو بكلمات أخرى ، الطاو بدأ يعمل ويستلم زمام القيادة . الفعل انقلب الى امتناع عن الفعل ، وخضع كل ما هو محيطي الى المركز . ولذلك يقال : «ليست الحركة الا اسماً آخر للسيادة (أو التحكم أو السيطرة) . هذا الدوران هو طواف الانسان في دائرة حول نفسه ، بواسطة تصبح جميع جوانب الشخصية منخرطة في العمل . تجعل قطبي النور والظلام يدوران ؛ أي ان النهار والليل يتعاقبان .

شعاع الفردوس

يتناوب مع الليل العميق المخيف . (فاوست)

بذلك يكون للحركة الدائرية معنى اخلاقي أيضاً ، من حيث انها تنشّط جميع قوى النور والظلام في الطبيعة البشرية ؛ ومعها أيضاً ، جميع الأضداد السيكلولوجية كائناً ما كان نوعها . انها معرفة النفس بواسطة الحضانة الذاتية Self-incubation (في السنسكريتية) tapas . ويعتبر انسان افلاطون ، المستدير من جميع الجوانب ، الذي اتحد فيه الجنسان الذكر والمؤنث ، المفهوم النموذجي المماثل للكائن الكامل .

من ألطف الموازيات لما قلناه هنا ما جاء في وصف ادوارد مايتلاند ، المساعد لأنا كغنزفورد ، لخبرته المركزية . لقد اكتشف في أثناء تأمله في فكرة ما ان الأفكار المتصلة بها تصبح مرئية ، ان صح التعبير ، في سلسلة طويلة ترقى رجوعاً الى مصدرها الذي هو الروح الإلهي في نظره . لقد حاول بواسطة التركيز على هذه السلسلة أن يتغلغل فيها حتى أصلها . يقول : «كنت بلا معرفة أو أمل على الاطلاق

عندما استسلمت لحافز القيام بالمحاولة ، كل ما فعلته انني اجريت اختباراً على قدرة من القدرات . . جالساً الى منصة الكتابة لبرهة لكي أدون النتائج كما كانت تأتيني ، صممت على الاحتفاظ بواعيتي الظرفية والخارجية متجهة نحو واعيتي الداخلية والمركزية الى ابعد ما استطيع الذهاب اليه . ذلك انني لم أكن أعرف ما اذا كنت قادراً على استعادة واعيتي الأولى ان انا تخليت عنها ، أو على تذكر وقائع الخبرة . أخيراً ، حققت غرضي ، وإن كان بمجهود كبير ، لأن التوتر الذي رافق محاولة جعل الطرفين مائلين في وقت واحد معاً كان عظيماً .

ما إن ابتدأت بحثي حتى وجدتهني اعبر سلسلة من الدوائر أو الاحزمة . وكان الانطباع الناتج صعود سلم كبير يمتد من المحيط الى مركز من نظام ، كان في نفس الوقت نظامي أنا ، والنظام الشمسي ، والنظام الكوني ، اذ كانت الأنظمة الثلاثة مختلفة ومتماثلة في نفس الوقت . . ثم ، بأقصى المجهود ؛ وما شعرت انه المجهود الأخير ، نجحت في تجميع جميع أشعة واعيتي في البؤرة المطلوبة . وفي نفس اللحظة ، كما لو أنه رُجَّ بي في قلب هذا الاشتعال المفاجيء الذي صدر عن الأشعة المتحدة فيها بينها على هذا النحو ، وجدتهني أمام مجد من البياض والسطوع لا يوصفان ، وضياء بلغ من شدته حداً كاد أن يلقيني الى الخلف . . لكن رغم انني كنت أشعر ان علي ان اكتشف المزيد ، عزمت على مضاعفة الجهد لكي اخترق ، ان كان ذلك في وسعي ، الضياء الذي يُعشي العينين ، وأشهد ما بداخله مما هو متضمن فيه . فنجحت بعد مجهود كبير ، وقد أثبتت لي الرؤية ما قد شعرت انه يجب أن يكون . . لقد كان الصورة المزدوجة «اللابن» . . غير المتجلي يصير متجلياً ، ما لا شكل له يصير ذا شكل ، وغير المتميز متميزاً ، وأن الله هو الرب ، مبرهنناً بازدواجيته على أن الله جوهر مثلها هو قدرة ، وحُب مثلها هو إرادة ، ومؤنث مثلها هو مذكر ، وأم مثلها هو أب^(١) . لقد اكتشف أن الله اثنان في واحد كالإنسان . فضلاً عن

(١) - ادوارد مايتلند ، انا كنغزفورد ، حياتنا ورسائلها ومذكراتها وعملها ، لندن ، ١٨٩٦ . يرجع خصوصاً الى الصفحة ١٢٩ ومابعدها . انا مدين بهذا المرجع الى زميلتي المحترمة الدكتورة بياتريس هنكل ، المقيمة في نيويورك .

هذا ، لقد لاحظ شيئاً يؤكد النص الصيني عليه أيضاً ، وأعني به «وقف التنفس» يقول أن التنفس العادي قد توقف وحل محله تنفس داخلي ، كما لو انه تنفس تتنفسه شخصية متميزة داخل جهاز فيزيائي آخر ، لقد حسب نفسه انه «الإنسان الكامل» الذي قال به أرسطو ، و «المسيح الجواني» الذي قال به القديس بولس ، و «الفردية الروحية والجوهرية التي تولد من داخل الشخصية الظاهرانية ، والتي تمثل - بالتالي - ولادة جديدة للإنسان على صعيد يتجاوز المادّي .

تشتمل هذه الخبرة الأصلية ^(١) على جميع الرموز الأساسية التي نجدها في النص الصيني . والظاهرة نفسها ، وأعني بها رؤية النور ، هي خبرة مشتركة بين كثير من الصوفية ، وهي لا شك خبرة عظيمة الأهمية ، لأنها تبدو ، في جميع الأزمنة والأمكنة ، وكأنها الشيء غير المشروط الذي يجمع في نفسه الطاقة العظمى والمعنى الأعظم . وقد عبرت هلدغارد البنغانية of Bingen ، وهي شخصية بارزة اضافة الى كونها صوفية ، عن رؤيتها المركزية بطريقة عمالة ، تقول : «كنت منذ طفولتي أرى نوراً في نفسي ، لكن ليس بالعينين الخارجيتين ، ولا من خلال أفكار قلبي ؛ كذلك لم تشترك الحواس الخمس الخارجية في هذه الرؤية . . النور الذي أدركه ليس من نوع محلي ، لكنه نور أسطع كثيراً من السحاب الذي يحمل الشمس . لا أستطيع أن أميز فيه ارتفاعاً أو عرضاً أو طولاً . . ما أراه أو أتعلمه في هذه الرؤية يظل طويلاً في ذاكرتي . أرى وأسمع وأعرف في نفس اللحظة . . في هذا النور لا أستطيع أن أتعرف الى نوع من الشكل ، رغم اني كنت أحياناً أراه نوراً آخر أعرفه بأنه النور الحي . . واني لأتمتع برؤية هذا النور ، اذ يتلاشى من ذاكرتي جميع الحزن والأسى . .

(١) - ان مثل هذه الخبرات هي خبرات أصيلة ، لكن اصلاتها لا تبرهن على أن جميع النتائج والمعتقدات التي تشكل سياقها هي نتائج ومعتقدات صحيحة بالضرورة . حتى في حالات الجنون قد يجد المرء خبرات نفسية صحيحة تماماً .
(هذه الملاحظة اضافها يونغ على الترجمة الانكليزية الاولى - ك . ف . ب) .

أعرف بضعة أشخاص ألفوا هذه الظاهرة عن خبرة شخصية . وإلى حد ما
استطيع أن أفهم هذه الظاهرة ، يبدو ان لها علاقة بحالة حادة من الوعي ، مكثف
بمقدار ما هو مجرد ، و«ي» «منفصل» (انظر ادناه) ، كما بينت ذلك هلدغارد بياناً ذا
صلة وثيقة بموضوعنا ، يرفع الى الواعية أقاليم الحوادث النفسية التي يغلفها الظلام
في العادة . ان تختفي الأحاسيس الجسدية العامة في أثناء هذه الخبرة لما يُشعرنا بأن
طاقتها النوعية قد انسحبت منها ، وأنها ذهبت باتجاه زيادة جلاء الوعي . في
الأصل ، تكون الظاهرة عفوية ، تغدو وتروح بمبادرة منها ، ذات أثر مدهش من
حيث إنها تكاد توجد دائماً حلاًّ للتعقيدات النفسية ، فتحرر الشخصية الجوانية من
الإشكالات العاطفية والعقلية ، فتخلق وحدة الكائن التي يشعر بها الناس بأنها
«تحرير» .

الإرادة الواعية لا تستطيع الوصول الى هذه الوحدة الرمزية لأنها تكون منحاظة
في هذه الحالة . ومن يخاصمها عندئذٍ هو الخافية الجامعة التي لا تفهم لغة الواعية .
فكان من الضروري اللجوء الى سحر الرمز الذي يحتوي على هذه المجازات
البدائية التي تخاطب الخافية . لا يمكن الوصول الى الخافية أو التعبير عنها الا
بالرموز ، وهذا ما يفسر لنا لماذا لا يستطيع سياق التحقق الفردي individuation
process أبداً الاستغناء عن الرمز . فالرمز هو التعبير البدائي عن الخافية ، لكنه في
نفس الوقت أيضاً فكرة تتطابق مع أعلى مستويات الحدس الذي تتجه الواعية .

أقدم رسم للمندلة أعرفه هو «دولاب الشمس» الذي يرجع الى العصر
الحجري الأول ، وقد اكتشفت حديثاً في روديسيا . وهو أيضاً مؤسس على مبدأ
«الأربعة» . ان الأشياء التي ترجع الى العصور السحيقة من التاريخ البشري لتمسّ
بطبيعة الحال أعمق طبقات الخافية وتؤثر في هذه الأشياء لا يمكن أن تأتي نتيجة
للتفكير ؛ بل تطلع ثانية من الأعماق المنسية ، إن كان لها أن تعبر عن أعمق
النظرات النافذة التي تحصلها الواعية ، وعن أعلى حدس تحدسه الروح . انها وهي
تأتي من هذه الأعمال تختلط فيها فريدة واعية اليوم الحاضر مع ماضي الحياة الموهلة
في القدم .

ظاهرات الطريق

١ . تفكك الواعية

كلما تلاقت الواعية الفردية ذات الحدود الضيقة ، لكن ذات الوضوح الشديد مع ذلك ، بالحنفية الجامعة ذات المدى الأرحب ، كان ثمة خطر لما لهذه الأخيرة من تأثير تخريبي ظاهر على الواعية . والحق أن هذا التأثير ، بحسب ما يبين لنا كتاب (هوي ينغ تشنغ) ، انما يرجع الى الظاهرات الغريبة التي ترافق رياضة اليوغا . فقد جاء فيه : اكل فكرة منفصلة تتخلق وتصبح مرئية لونا وشكلاً . القوة الروحية الكلية تكشف عن آثارها . . » من الرسوم التي اشتمل عليها الكتاب صورة تمثل حكيماً استغرقه التفكير ، يحيط برأسه السنة من نار ، من كل لسان تطلع اشكال بشرية ؛ هذه الخمسة تعود فتنقسم الى خمسة وعشرين شكلاً آخر . ولو دامت هذه الحالة لشكلت سيقاً فصامياً (سكيزو فرانيا) ، لذلك تقول التعليمات ، كما يحذر من ذلك الشيخ : الأشكال التي شكلتها نار الروح ما هي الا ألوان وأشكال فارغة . نور الطبيعة البشرية ينعكس على النور البدئي ، الحقيقي .

بهذا يصبح أمراً مفهوماً أن يعود النص الى الشكل الواقعي من «الدائرة المحيطة» ، بغية الحلولة دون «الدفق الى الخارج» ، ووقاية وحدة الواعية من الانشطار الذي يتهدهدها من الخافية . زد على ذلك أن المفهوم الصيني يشير الى طريق يؤدي الى التخفيف من الأثر التخريبي الذي تحدثه الخافية ، اذ يصف «أشكال الأفكار» ، أو «الأفكار المنفصلة» بالقول انها «اشكال وألوان فارغة» ، فيجردها من قواها الى أقصى المستطاع . هذه الفكرة نجدناها شائعة في كل البنية البوذية (وخصوصاً في صيغتها المهايانية) ، وفي التعليمات الموجهة الى الموتى في كتاب التيبث حتى لقد ذهب هذا الاخير الى حد اعتبار الآلهة الملائمة وغير الملائمة اوهاما يجب التغلب عليها . يقيناً ، ليس من اختصاص عالم النفس أن يبرهن على ما في هذه الفكرة من صواب أو خطأ ميتافيزيقي ، بل كل ما عليه ان يعين ما له من تأثير نفسي كلما أمكنه ذلك . انه ، بعمله هذا ، ليس بحاجة لأن يشغل نفسه ، بما ان كان الشكل موضوع البحث وهماً مفارقاً ام لا ، ما دام الإيمان لا العلم عليه أن يبت بهذه المسألة . نحن نعمل هنا في حقل كان بدا منذ زمن طويل انه خارج عن نطاق العلم ، ولذلك كان يعتبر وهماً برّمتة . لكن ليس هناك مبرر علمي لهذا الافتراض ، ذلك ان حقيقة هذه الأشياء ليست مشكلة علمية ما دام موقعها في كل الأحوال فوق متناول الإدراك والحكم البشريين ، وبالتالي فوق إمكانية البرهان . ان عالم النفس ليس معنياً بحقيقة هذه المركبات بل بالخبرة النفسية ، لا شك انها محتويات نفسية يمكننا اختبارها ، وتتمتع باستقلالية لا يُنازع بشأنها . انها جُمل نفسه منفصلة تظهر اما عفواً في أحوال الوجد ، وفي ظروف معينة تستخرج انطباعات وآثاراً شديدة القوة ، أو تصبح ثابتة كاضطرابات عقلية على شكل أوهام وهلوسات ، فتحطم وحدة الشخصية .

ان طبيب النفس ميّال الى الاعتقاد بفاعلية العقاقير وما أشبه ، والى تفسير السكيزوفرنيا (مرض الفصام وهو انشطار عقلي في الجنون) بهذه الصيغ ، ومن هنا عدم التشديد على أهمية المحتويات النفسية . من ناحية ثانية ، في الاضطرابات ذات المنشأ النفسي (هستيريا ، عُصاب قسري ، الخ . .) لا بد من وجود عُقد انشطرت بصورة تلقائية ، كما هو الحال في حالات السُرْمَة (= السير في النوم) . صحيح أن

فرويد يجب أن ينسب هذه الأمراض بارجاعها الى كُتِبَ أنسي أنسَرَب الى الخافية ،
 الا ان هذا التفسير لا ينطبق على جميع الحالات ، لأن المحتويات التي لا تستطيع
 الواعية أن تمثلها يمكنها أن تتطور تطوراً عفواً من الخافية ، وفي مثل هذه الحالات
 تكون فَرُضية الكُتِبَ غير مكافئة . زد على ذلك أن الاستقلالية الأساسية التي تتمتع
 بها هذه العناصر يمكن أن نلاحظها في انفعالات حياتنا اليومية ، اذ تعترض بعناد
 أفعالنا الإرادية ، ثم تطفئ على الأثنية وتخضعها لسيطرتها ، بالرغم من جهودنا
 الجادة لكُتِبَها . لذلك لا عجب أن يرى البدائي في هذه الأحوال حالة مَن به مَس من
 الشيطان ، أو حالة من ضاعت روحه . حتى كلامنا الدارج يعكس نفس الشيء
 عندما نقول : «لا أدري ما الذي دخل فيه اليوم» ؛ «استولى عليه الشيطان» ، «خرج
 عن طوره» ؛ «يتصرف كالمسوس» . حتى التطبيق القانوني يقر بدرجة من المسؤولية
 المخففة في حالات الانفعال . وبهذا تكون المحتويات النفسية المستقلة اختبارات
 مشتركة فيما بيننا جميعاً . ولهذا المحتويات تأثير مخرب على المزاج الواعي .

لكن الى جانب الانفعالات العادية المألوفة ثمة حالات انفعالية اخفى وأشد
 تعقيداً لا يمكن أن نصفها بالانفعالات البحتة ، بل جعل نفسية منفصلة ومعقدة .
 وكلما زادت تعقيداً ، كان لها صفة الأشخاص . وبما هي عوامل مكونة للشخصية
 النفسية ، كان لها صفة «أشخاص» بالضرورة . مثل هذه الجمل المنفصلة تظهر في
 الأمراض العقلية على وجه الخصوص ، كما في حالات انشطار الشخصية ذات المنشأ
 النفسي (شخصية مزحوجة) ، وفي الظواهر الوسيطية mediumistic phenomena ،
 بطبيعة الحال . كذلك نصادفها في الظواهر الدينية . كثير من الآلهة الأولى
 تطورت عن «أشخاص» الى أفكار مشخصة ، ثم الى افكار مجردة ، ذلك أن محتويات
 الخافية الناشطة تظهر دائماً أول ما تظهر على هيئة إسقاطات على العالم الخارجي .
 وفي مجرى التطور العقلي ، تمثلها الواعية تدريجياً بما هي إسقاطات في المكان
 وتصوغها من جديد أفكاراً واعية ثم تنتزع منها صفتها الشخصية المستقلة أصلاً . كما
 نعلم ، ان بعض الآلهة مجرد أوصاف ونعوت عن طريق علم التنجيم : حربيّ martial
 (نسبة الى المريخ إله الحرب) ، جذلان jovial (نسبة الى جوبيتر) ، كئيب Saturnine

(نسبة الى زحل) ، شهواني erotic (نسبة الى «ايروس» إله الحب والجنس) ، منطقي logical (نسبة الى «لوغوس» الكلمة أو العقل) ، مجنون lunatic (نسبة الى «لونا» القمر) .

تتيح لنا التعليمات التي اشتمل عليها كتاب التيبث (كتاب الموتى) على وجه الخصوص أن نرى كم هو كبير مقدار تعرض الوعي الى خطر التفكك والانحلال من خلال هذه الأشكال . مرة بعد مرة ، يُعَلِّمُ الكتابُ الموتى الا يحسبوا هذه الأشكال من قبيل الحقائق وألا يخلطوا بين ظهورها القاتم وبين النور الأبيض الصافي الذي يصدر عن «دُرماكيا» (جسد الحقيقة الإلهي) . والمعنى هو الآ يقوموا بإسقاط النور الوحيد الذي يصدر عن الواعية العليا في أشكال حسية بحيث تجعله ينحلّ الى عدد من الجمل المنفصلة المستقلة . فلو لم يكن ثمة خطر من هذا ، ولو كانت هذه الجمل لا تمثل ميولاً مستقلة ومتلاقية فيما بينها بشكل خطر ، لما كانت هذه التعليمات الملحة بالأمر الضروري . ولو درسنا موقف العقل الشرقي البسيط ذي الاتجاه العددي (= تعدد الآلهة) ، لكادت أن تكون هذه التعليمات معادلة لتحذيرات المسيح بألا يدع نفسه تقع في عماية التوهم بإله شخصي ، ناهيك عن التثليث وما لا حصر له من الملائكة والقديسين .

لولا تكن هذه الميول نحو التفكك والانفصال كامنة في النفس البشرية ، لما انقسمت الأجزاء بعضها عن بعض ؛ بعبارة أخرى ، لما كانت الأرواح ولا الآلهة قد جاءت الى الوجود . وهذا هو السبب أيضاً في أن زماننا خال من الآلهة الى أبعد حد ، وأنه زمان دنيوي ، لأننا نفتقر الى معرفة النفس الخافية ، ونتبع ديانة الواعية دون سواها . ان ديانتنا الحقيقية هي ديانة توحيد الواعية ، أو توحيد ألوهة الواعية ، التي استحوذت علينا . وقد ضاعف ذلك إنكار متعصب لوجود أجزاء من النفس تتمتع بالاستقلالية ، لكننا نختلف عن تعليم اليوغا البوذية في اننا ننكر حتى امكانية اختبار هذه الأجزاء المستقلة . وهنا ينهض خطر عظيم ، لأن هذه الأجزاء تسلك عندئذٍ مسلك كل المحتويات المكبوتة الأخرى : لا بد لها الا ان تشجع على مواقف خاطئة ، ذلك ان المادة المكبوتة تعود الى الظهور في الواعية في شكل غير شرعي .

هذه الحقيقة ، التي تلفت النظر جداً في كل حالة عصاب ، تصح أيضاً على الظواهر النفسية الجماعية . من هذه الناحية ان زماننا واقع في قبضة خطأ قاتل . نعتقد ان بإمكاننا نقد الحقائق الدينية عقلياً . نعتقد ، مثلاً ، كما اعتقد لابلاس ، ان الله فرضية يمكن ان تخضع للعلاج العقلي ، نفيّاً أو إثباتاً . وننسى تماماً ان السبب الذي جعل البشرية تعتقد بـ «الشیطان» أمر لا علاقة له ألينة بالعوامل الخارجية ، بل يرجع الى الإدراك البسيط للأثر الداخلي الشديد الذي تحدته الجمل المتشظية المستقلة . هذا الأثر لا يبطله نقدٌ أسيمٍ نقداً عقلياً ، ولا ان نصفه بالخطأ . الأثر حاضر دائماً في الجماعة ؛ والجمل المستقلة فاعلة دائماً ، لأن البنية الأساسية للخافية لا تمسها تقلبات الواعية العابرة .

لو أنكرنا وجود الجمل المستقلة ، وتصورنا اننا نخلصنا منها بنقد اسمها ، لم نستطع أن نفهم أثرها الذي يظل يفعل مع ذلك ، ولم يعد بإمكان الواعية أن تمثلها ، ولأصبحت عامل اضطراب لا تفسير له ، ولرحنا في النهاية نفترض ألا بد من وجوده في مكان أو آخر خارج أنفسنا . بهذه الطريقة ، ينتج اسقاط عن الجمل المنفصلة المستقلة ، ويخلق في نفس الوقت وضع خطر ، لأن آثار القلق باتت تُعزى الآن الى نية سيئة من خارج أنفسنا لا يمكن أن نجدها بالطبع الا لدى جيراننا - على الضفة الأخرى من النهر . وهذا يؤدي الى ضلال جمعي ، والى «حوادث» وحروب وثورات - بكلمة واحدة ، الى جنون جماعي مخرب .

الجنون استحواذ من جانب محتوى غير شعوري لا تتمثله الواعية ، بما هو كذلك ؛ ولا يمكنها أن تتمثله ، ما دام العقل الواعي يفكر وجود مثل هذه المحتويات . «إذا عبرنا عن ذلك بالمصطلح الديني قلنا ان الموقف يعادل ما لو قلنا : «اننا لم نعد نخاف الله ونؤمن بأن كل شيء يجب أن تحكمه المعايير البشرية» . ان هذه الغطرسة ، أي هذا الضيق في الواعية ، هو دائماً أقصر طريق الى «المصححات العقلية» . وهنا أنصح بقراءة رواية هـ . ج . ويلز ، «والد كرسينا البرتا» ، ورواية شربر Denkwürdig Keiten eines Nerven

خليق بالأوروبي المتنور أن يشعر بالارتياح عندما يقال في الـ (هوي منغ تشنغ) ان «الأشكال التي تشكلها نار الروح ما هي الا ألوان وأشكال فارغة ، فهذا الكلام يقرع في سمعه رنة كلام اوروبي تماماً ، ويبدو أنه يناسب عقلنا بامتياز . والحق اننا نظن أن بمقدورنا أن نتملق أنفسنا ببلوغنا هذه الأعالي من الوضوح لأننا نتصور اننا قد خلقنا هذه الأشباح من الآلهة بعيداً وراء ظهورنا . لكن ما كبرنا عنه ليس الا أشباح الكلمة ، لا الحقائق النفسية التي كانت مسؤولة عن ولادة الآلهة . نحن ما زالت تستحوذ علينا محتوياتنا النفسية المستقلة كما لو كانت آلهة . بتنا اليوم نسمي أمراض الخوف (فوبيا) نوعاً من الإكراه ، أو أعراضاً عصابية . والآلهة أصبحت أمراضاً ، زيوس لم يعد ملكاً على الأولب بل الضفيرة الشمسية ، وصار يخلق غماذج لغرفة استشارة الطبيب ، أو يوقع الاضطراب في عقول السياسيين والصحافيين ، الذين يطلقون العنان للأوبئة العذبة . من غير دراية منهم .

لذلك خير للإنسان الغربي ألا يعرف في مبتدأ أمره الشيء الكثير عن سرِّ الحكمة الصينية ، لأنها عندئذ ينطبق عليها حال «الأداة الصحيحة في يد الإنسان غير الصحيح» ، فبدلاً من أن يزيد قناعته بأن الشيطان ما هو الا وهم ، عليه ان يخبر ثانية حقيقة هذا الوهم . عليه أن يتعرف على هذه القوة النفسية من جديد ، وألا يتنظر حتى توضح له تقلبات مزاجه وأحواله العصبية وهلوساته بآلم طريقة ممكنة بأنه ليس هو السيد الوحيد في بيته . ان نواتج الميول الانقسامية هي شخصيات نفسية فعلية ذات حقيقة نسبية . تكون حقيقية عندما لا نعترف بأنها كذلك وحين نقوم بإسقاطها تبعاً لذلك ، وتكون حقيقية نسبياً عندما تتعلق بالوعي (بالتعبير الديني ، عندما يكون الدين موجوداً) ، لكنها تكون غير حقيقية الى الحد الذي تكون فيه الواعية قد بدأت تنفصل عن محتوياتها . غير أن هذه هي الحالة الوحيدة التي نكون فيها قد عشنا حياتنا بصورة مُستنفذة ، وبنوع من الانكباب الى حد لم يعد يوجد معه التزامات نحو الحياة لم نقم بها ، والى حد لم يعد يوجد معه - بالتالي - شهوات لا يمكن التضحية بها بلا تردد ، مما قد يقف عائقاً دون طريق الانفصال الداخلي عن العالم . لا جدوى من الكذب على أنفسنا من هذه الناحية . فحيثما كنا متعلقين ، بقينا

مُسْتَرْقَيْنَ . وعندما يُسْتَرْقَ المرء ، كان معنى ذلك أن هناك شيئاً أقوى منه . (حقاً انك لن تطلع أبداً من ذلك المكان حتى تسد الدافق الأخير) . ليست المسألة مسألة انتفاء الفرق بين أن نسمي شيئاً ما «هوساً» أو «إلهاً» . ان تعبد هوساً شيء بغض ولا يليق بالكرامة ، لكن أن تعبد إلهاً أمر لا شك انه احفل بالمعنى وأكثر جدوى ، لأن معناه فعل خضوع لكائن روحي أعلى . ان التشخيص يتيح لنا رؤية الحقيقة النسبية للجملة النفسية المنفصلة المستقلة ، وبذلك نجعل من تمثلها أمراً ممكناً ونجرد القدر من قواه . عندما لا نعترف بالله ، ينمو هوس الأنيمة ؛ ومن هذا الهوس يأتي المرض .

ان تعاليم اليوغا تعتبر الاعتراف بالآلهة امراً مسلماً به . اما تعليماتها السرية فليست مرادة الا لمن أوْشك نور واعيته على التخلص من قوى القدر ، لكي يدخل في الوحدة النهائية غير المنقسمة ، «مركز الفراغ» ، «حيث يسكن إله أقصى الفراغ والحياة» ، على ما يقول النص . أن تفهم مثل هذا التعليم هو أمر صعب بلوغه في آلاف الدهور . واضح أن حجاب «المالاي» لا يُرفع بمجرد قرار يتخذه العقل ، بل يتطلب اعداداً كلياً ودأباً ومثابرة تقوم على تسديد تام لجميع ديون الحياة . فما دام هناك تعلق غير مشروط من خلال الشهوات ، لا يرفع الحجاب ولا نبلغ اعالي الوعي الخالص من شوائب المحتويات والوهم ، كما لا تنفع الحيل ولا الخدع في الوصول الى هذه النتيجة . فهو مثل اعلى لا يتحقق تماماً الا بالموت . وحتى ذلك الحين تظل أشياء حقيقية نسبياً موجودة في الخافية .

٢ . الأنيم والأنيمة*

يبين النص الذي بين أيدينا ان من الأشكال التي توجد في الخافية - اضافة الى الآلهة - الأنيم والأنيمة . فكلمة (هون) hun ترجمها ويلهلم بالانيم . والحق أن مفهوم

(*) بحسب المصطلح اليوناني ، الأنيم animus هو عنصر الذكورة في نفس المرأة ، والأنيمة anima

الأنيم لما يناسب الهون . فالحرف الذي يدل عليه هو الحرف الذي يدل أيضاً على «الغيم» وعلى «الشیطان» فيكون معنى الهون «شیطان الغيم» ، «نفس النفس» ، الذي يرجع الى مبدأ (يانغ) ، وبالتالي الى المبدأ المذكور . بعد الموت ، يرتفع هون الى الأعلى ويصبح شن shen ، اي الروح او الإله «المنتشر والتجلي بذاته» . اما الأنيمة فتسمى «بؤو» ، وترسم بالأحرف التي تدل على الأبيض ، و«الشیطان» ، أي «الشیخ الأبيض» ، الذي يرجع الى الروح الجسدية السفلى المقيدة الى الأرض ، الى مبدأ «ين» ، وبالتالي الى المبدأ المؤنث . بعد الموت ، تغوص الأنيمة (بؤو) الى الأرض ، وتصبح شيطناً (كواي) ، وغالباً ما تسمى بـ «العائد» (أي العائد الى الأرض) ، أو الشیخ او الروح . ان يغادر الأنيم والأنيمة الجسد بعد الموت ويأخذ كل منهما طريقاً مستقلاً هو دليل على انها ، بالنسبة للواعية الصينية ، عاملان نفسيان متمایزان ولهما آثار مختلفة بشكل بَيّن ، وبالرغم من انها في الأصل متحدان في «الطبيعة البشرية الحقيقية الفعالة الواحدة» ، في «بيت المبدع» ، الا انها اثنان مع ذلك . الأنيم يعيش نهاراً في العينين (اي في الواعية) ويبيت ليلاً في الكبد . انه ذلك الذي تلقيناه من الفراغ الأعظم ، ذلك الذي يتماثل في الشكل مع البداية الأولى . أما الأنيمة ، وهي «طاقة الثقيل والكثيف» ، فتتعلق بالقلب اللحمي ، وعنها تصدر «الشهوات ويواعث الغضب» . و«كل مكتئب عكس المزاج فمقيد بالأنيمة» .

منذ سنوات خلت ، وقبل أن يعثر ويلهلم على هذا النص ، كنت استخدم مفهوم «الأنيمة» على نحو يشبه تماماً التعريف الصيني لمفهوم «بؤو» لكن في معزل عن كل طرح ميتافيزيقي . بالنسبة لعالم النفس ، ليست الأنيمة شيئاً مفارقاً ، بل شيء يدخل في نطاق الخبرة . ذلك أن الحالات الانفعالية ، كما يبين ذلك النص الصيني ، ما هي الا حالات خبرة مباشرة . لكن ، لماذا نتكلم اذن على الأنيمة ولا نقصر كلا منا على الأمزجة فقط ؟ سبب ذلك ان للانفعالات صفة الاستقلال ،

= هي عنصر الأنوثة في نفس الرجل . ويرى يونغ أن الأنيم والأنيمة هما الموازيان النفسيان للجنينات المذكورة والمؤنثة التي تدخل في البنية العضوية في كل من المرأة والرجل - المترجم -.

وبالتالي فإن معظم الناس يقعون تحت سيطرتها . لكن الانفعالات ، كما رأينا ، تحتويات محددة قائمة في الواعية ، أجزاء من الشخصية . وبما هي أجزاء من الشخصية ، تساهم في خاصيتها ويمكثها - تبعاً لذلك - في يُسر ، وهو سياق لم يزل مستمراً حتى اليوم ، كما تبين ذلك الأمثلة المتقدمة . التشخيص ليس اختراعاً تافهاً ، من حيث إن الإنسان الذي يجرّضه انفعال ما لا يبدي عن خاصية محايدة ، بل عن خاصية متميزة تماماً ، تختلف عن شخصيته العادية . وقد أظهر البحث الدقيق أن الصفة الانفعالية في الرجل ذات ملامح أثوية . هذه الحقيقة النفسية أنشأت التعليم الصيني المتعلق بالروح المؤنثة (بُوو) ، كما أنشأت عندي مفهوم (الأنيمة) . وإذا امعنا النظر ، أو اختبرنا حالة الوجد ecstasy ، اكتشفنا وجود شكل أثوي في الخافية ، ومن هنا جاء الاسم المؤنث للأنيمة أو النفس أو الروح . كذلك يمكننا تعريف الأنيمة بالقول أنها صورة بذئية أو نموذج بذئي archetype ، أو هي جماع اختبارات الرجل للمرأة ، وهذا هو السبب الذي يجعلنا نسقط الأنيمة على المرأة . وكما نعلم ، لقد طالما وصف الشعر الأنيمة واحتفل بها . إن لصلة الأنيمة بالشيخ أو الروح أهمية كبيرة بالنسبة الى علماء الباربا - سيكولوجيا من حيث أن «الضوابط» هي في الأعم الأغلب من الجنس المضاد .

رغم أن ترجمة ويلهلم كلمة (الهون) بـ «الأنيم» لها ما يبررها عندي ، إلا أنه كان لدي أسباب هامة لاختيار «اللوغوس» تسميةً لروح الإنسان ، بسبب ما في الوعي والعقل المذكرين من وضوح ، دون التعبد المناسب الآخر الذي هو «الأنيم» . فقد وفر فلاسفة الصين على أنفسهم مصاعب معينة تثقل كاهل علماء النفس في الغرب ، لأن الفلسفة الصينية ، شأنها كشأن جميع أوجه النشاط العقلي والروحي في الأزمنة القديمة ، كانت حُكراً على العالم المذكر . إذ لم يكن للجانب السيكولوجي دور في صياغة مفاهيمها ، وبالتالي لم تكن تدرس مدى انطباق هذه المفاهيم على النفس المؤنثة . لكن عالم النفس لا يستطيع تجاهل وجود امرأة وسيكولوجيتها الخاصة . الأسباب التي تجعلني أوثر ترجمة (هون) كما تظهر في الرجل بـ (لوغوس) ذات صلة بهذه الحقيقة . أما ويلهلم فيستخدم (اللوغوس) ترجمة لمفهوم (هسنگ)

في المستوى الأدنى ، الأنيم لوغوس قاصر ، كاريكاتور عن العقل المذكر المتميز ، تماماً كما أن الأنيمة ، في المستوى الأدنى ، كاريكاتور عن الإيروس المؤنث . وإذا مضينا في المقابلة قلنا ، كما أن (الهون) يتطابق مع (المسنخ) ، الذي ترجمه ويلهلم باللوغوس ، كذلك أن إيروس المرأة يتطابق مع (النسخ) ، الذي يترجم بالقدراً أو المصير ، وقد ترجمه ويلهلم بالإيروس . الإيروس تناسج وتشابك ، أما اللوغوس فمعرفة مميزة (بالكسر) ، نور موضح (بالكسر) ؛ الإيروس اتصال أو قُربى ، أما اللوغوس فتمييز وانفصال . وبذلك يبدو اللوغوس القاصر في أنيم المرأة شيئاً لا علاقة له بالموضوع أبداً . وبالتالي انحيازاً أو رأياً يبعث على الغيظ تماماً لا علاقة له بالمرأة بالطبيعة الجوهرية للموضوع .

كثيراً ما يُنحى عليّ باللائمة لأنني اشخص الأنيمة والأنيم كما تفعل الميثولوجيا ، لكن هذا اللوم ربما كان له ما يسوغه لو أنني ، في استعمالتي السيكلوجي لـهذين الاصطلاحين ، جَسَّدْتُهما على نفس النحو الذي تجسّدتهما فيه الميثولوجيا . يجب عليّ أن أعلن مرةً واحدةً وإلى الأبد أن التشخيص ليس اختراعاً من عندي ، بل كامن في طبيعة الظاهرات ، ولعلّه مما يتنافى مع الموقف العلمي أن اتغاضى عن كَوْن الأنيمة جملةً نفسيةً مستقلةً ، وبالتالي شخصية . ما من أحد ممن يحمل عليّ ويتهمني يتردد لحظةً في القول : «حلمت بالسيد فلان» ، بينما لو شاء الدقة لقال : «حلمت بصورة تمثل السيد فلان» ، وما الأنيمة غير صورة تمثل الطبيعة الشخصية للجملة المستقلة موضوع البحث . أما طبيعة هذه الجملة ، بالمعنى المفارق ، أي فيما وراء حدود الخبرة ، فشيء لا نستطيع أن نعرفه .

لقد حدّدتُ الأنيمة في الرجل بما هي تشخيص للخافية عموماً ، ولذلك اعتبرتها جسراً نجتازه إلى الخافية . ثمة نقطة هامة في النص الصيني بهذا الصدد . يقول النص أن الواعية (أي الواعية الشخصية) تأتي من الأنيمة . بما أن العقل الغربي مؤسس على منطلق الواعية ، لا بد له إلا أن يحدد الأنيمة بالطريقة التي حددها بها . لكن الشرق ، المؤسس كما هو واقع الأمر على منطلق الخافية ، لا يرى الواعية غير أثر من الأنيمة ! لاشك أن الواعية قد نشأت أصلاً من الخافية . كثيراً

ما ننسى هذه الحقيقة ، حتى اننا نواحد النفس بالواعية ، أو على الأقل نحاول أن نصور الخافية وكأنها شيء مستمد ، أو أثر ، من الواعية (كما هو الأمر ، على سبيل المثال ، في نظرية الكبت عند فرويد) . لكن للأسباب التي بحثناها فيما تقدم ، ان من الأساسي أن نبين اننا لا نستطيع أن نتزع شيئاً من حقيقة الخافية ، وأن الصور التي تشتمل عليها الخافية يجب أن نفهمها باعتبارها مقادير فاعلة . ان من يفهم ما هو المراد بالحقيقة النفسية ليس بحاجة الى النكوص نحو «العفرتة» البدائية . والحق اننا ان لم نفهم صور الخافية فهماً جاداً على انها عوامل فاعلة بطريقة عفوية ، وقعنا ضحية إيمان احادي بالعقل الواعي ، الذي يؤدي بنا في نهاية المطاف الى حال من التوتّر لا تطاق . وعندئذ لا بد من وقوع الكوارث ، لأننا ، بالرغم من كل وعينا ، قد أغفلنا النظر الى القوى النفسية المظلمة . اننا لسنا نحن الذين نشخصها ، بل هي منذ البداية ذات طبيعة شخصية . ولا يمكننا أن نفكر في نزع الصفة الشخصية عنها ، أي اخضاع الأئيمة كما يعبر عن ذلك النص الصيني ، الا اذا اعترفنا بها اعترافاً تاماً .

هنا أيضاً نجد فرقاً كبيراً بين البوذية وموقف العقل الغربي . ثم ان هناك توافقاً ظاهرياً خطيراً . ان تعليم اليوغا ينبذ كل محتويات التخيلات الطليقة Fantasy ، ونحن نفعل نفس الشيء ، لكن الشرق يفعل ذلك على أسس مختلفة . في الشرق ، المفاهيم والتعاليم التي يكتب لها أن تسود انما هي المفاهيم والتعاليم التي تعبر عن التخيلات الطليقة على أغنى قياس ؛ في الحقيقة ان الوقاية من الإفراط في التخيل الطليق أمر مطلوب . ثم اننا نعتبر التخيل الطليق شيئاً لا قيمة له ، حلم يقظة يتصف بالذاتية . بطبيعة الحال ، ان صور الخافية لا تظهر مجردات منزوعة منها جميع الأشراك الخيالية ؛ على العكس ، تكون محتضنة ومتناسجة مع شبكة من التخيلات الطليقة ذات تنوعات فائقة للعادة ، وكثرة تبعث على الحيرة . ان الشرق يستطيع أن ينبذ هذه الطلائق Fantasies ، لأنه منذ زمن بعيد قد استخلص منها الجوهر وكثفه في تعاليم عميقة . لكننا ما اخترنا قط هذه الطلائق ، وأقل من ذلك بكثير استخلاص جوهرها . هنا نجدنا أمام جزء كبير من الخبرة علينا

أن نتداركه ، ولا نستطيع أن نفرّق بين ما له قيمة وما ليس له قيمة ما لم نجد المعنى في النغو الظاهر . قد نطمئن الى أن ما نستخلصه من خبراتنا لسوف يختلف عما يقدمه لنا الشرق اليوم ، من حيث أن الشرق قد توصل الى معرفة الأشياء الداخلية وهو في جهل نسبي بالعالم الخارجي . اما نحن فسوف نبحت في النفس وفي أعماقها ، تؤيدنا في ذلك معرفة علمية وتاريخية واسعة الى أبعد الحدود . صحيح أن معرفتنا بالعالم الخارجي ، في هذه اللحظة الراهنة ، هي أكبر عقبة في طريق المعرفة الداخلية ، لكن الشقاء السيكلوجي سوف يقهر جميع العقبات . ان ما نقوم به الآن هو تشييد علم نفس يعطينا مفتاحاً الى أشياء وجد الشرق مدخلاً اليها ، فقط من خلال حالة نفسية شاذة .



انفصال الوعي عن الموضوع

عن طريق فهمنا للخافية نحرر أنفسنا من سلطانها . ان هذا هو الغرض من التعاليم التي اشتمل عليها النص الصيني . فالتلميذ يتعلم على ان يجتمع على نور الإقليم الجواني ، وفيما هو يفعل ذلك فإنما يحمر نفسه من جميع أشارك الخارج والداخل . ان باعثه على الحياة يرشده نحو واعية بلا محتوى ، واعية تنتج للجميع المحتويات ان تكون موجودة مع ذلك . يقول كتاب (هوي منغ تشنغ) عن هذا الانفصال :

هالة من نور تحيط بعالم الناموس .
ينسى أحدنا الآخر ، ساكناً وصافياً ، كلنا شديد القوى وفارغ
الفراغ يضيئه نور القلب والسماء .
ماء البحر أملس ومرايا القمر على سطحه
السحب تتلاشى في الفضاء الأزرق ؛ الجبال تشع وضاءة
الواعية تعود الى التفكير ؛ قرص القمر يستريح وحيداً

هذا الوصف للإتمام يصور حالة نفسية ربما كان خير وصف لها هو انفصال
الواعية عن العالم ، وانسحابها منه الى نقطة فوق هذا العالم ، ان صح التعبير .

وبذلك تكون الواعية في نفس الوقت فارغة وغير فارغة . لم تعد مشغولة بصور الأشياء ، بل تحتويها ليس إلا . ان امتلاء العالم الذي ظل حتى حينئذٍ يضغط على الواعية لم يفقد شيئاً من ثرائه وجماله ، لكنه لم يعد له سيطرة على الواعية . والمطالبة السحرية بالأشياء قد توقفت لأن الواعية المتناسجة مع أشياء العالم قد بلغت النهاية . الخافية لم نعد نسقطها على العالم ؛ كذلك بطلت المشاركة الصوفية مع الأشياء . ولذلك لم تعد الواعية منشغلة بالمقاصد الاضطرارية ، بل تحولت الى رؤية تفكرية ، كما يقول النص الصيني بجدارة عالية .

كيف حدث هذا الأثر؟ (نفترض ، طبعاً ، ان المؤلف الصيني أولاً لم يكن كاذباً ، ثانياً انه ذو عقل سليم ؛ ثالثاً ؛ يتمتع بذكاء خارق للعادة) . ان نفهم أو نشرح الانفصال الموصوف في النص هو أن تتطلب عقليتنا نوعاً من المقاربة غير المباشرة . لا فائدة من أن نسخر من الحساسية الشرقية ؛ ذلك انه لا شيء طفولياً أكثر من أن نرغب في تجميل حالة نفسية كهذه . هذا الانفصال شيء اعتدت عليه في ممارستي ؛ انه الأثر الشفائي بامتياز ، وقد عملت له مع طلابي ومرضاي ؛ هو انحلال المشاركة الصوفية . بضربة عبقرية اقام ليفي بروهل المشاركة الصوفية على انها العلامة المميزة على العقلية البدائية ؛ كما وصفها هو انها مجرد البقية الواسعة بلا تحديد من انعدام التمييز بين الذات والموضوع ، الذي ما زال قوياً جداً عند البدائيين حتى انه لا بد وأن يستوقف الأوروبي ، المتواحد كما هي عليه الحال بالمنطلق الواعي . بمقدار ما لا نعي الفرق بين الذات والموضوع ، تكون الهوية غير الشعورية هي السائدة . وعندئذٍ نسقط الخافية في الموضوع ، ويعود الموضوع فيلج الذات أو يعبر فيها ، أي انه يصير شأناً نفسياً عندئذٍ يتصرف النبات والحيوان كما يتصرف الإنسان ، فيكون الإنسان في نفس الوقت «هو نفسه وحيواناً أيضاً ، ويصبح كل شيء حياً بالأشباح والآلهة . طبعاً ، الإنسان المتمدن يعتبر نفسه فوق هذه الأشياء بما لا قياس له . لكنه ، بدلاً من ذلك ، غالباً ما يظل متواحداً مع أبويه طوال حياته ، أو يتواحد بعواطفه وأهوائه ، ثم لا ينجل من ان يهتم غيره بما لا يراه في نفسه . لا بل انه مُبتلى ببقية من انعدام الوعي البدائي ، أو فقدان التمييز بين

الذات والموضوع . ويسبب من هذا الانعدام في الوعي يقع في عبودية ما لا حصر له من الناس والأشياء والظروف ، أي انه خاضع للتأثير بدون تحفظ . فعقله ، الذي يكاد أن يكون مثل عقل البدائي ، حافل بالمحتويات المقلقة ، ويعدد هذه المحتويات يستخدم تعاويذ سحرية (لطرذ العفاريت) . فلا يعود يعطى السحر بأكياس الدواء والتحامم والقوابين الحيوانية ، بل بأدوية الأعصاب ، وأمراض العصاب ، و«التقدم» وعبادة الإرادة ، وما الى ذلك . لكن ، لو اعترفنا بأن الخافية مقدار فاعل الى جانب الواعية ، وأقمنا حياتنا على نحو نعترف به ، على قدر الإمكان ، بالواعية والخافية جميعاً ، أو بالمطالب الغريزية ، اذن لا تنقل مركز الجذب في مجمل الشخصية من موقعه ، فلا يعود قائماً في الأنية ego ، التي ما هي الا مركز الواعية ، الى نقطة مقترضة بين الواعية والخافية ، التي يمكن أن ندعوها بالنفس أو الذات The Self ؛ فإذا حصل هذا الانتقال ، تخلصنا من المشاركة الصوفية ، وبنت فينا شخصية لا تعاني الا في الطبقات السفلى ، ان صح التعبير ، لكنها تكون في الطبقات العليا منفصلة انفصلاً فريداً عن الحوادث المؤلمة والمفرحة على حد سواء .

ان خلق هذه الشخصية العليا وولادتها هو ما يراد به في النص الصيني عندما يتكلم عن «الثمرة المقدسة» ، و«جسد الألماس» ، أو عندما يشير على نحو آخر الى «الجسد الذي لا يهدم» . ترمز هذه التعابير سيكولوجياً الى موقف لا تطاله غمرة انفعالية كثيفة ، وهو لذلك في مأمن من الصدمة القاضية ؛ فهي ترمز الى واعية منفصلة عن العالم . ان لدي من الأسباب ما يجعلني على الاعتقاد بأن هذا الموقف انما يبدأ بعد منتصف العمر ، وأنه استعداد طبيعي للموت فعلاً . الموت من النفس في مثل أهمية الولادة ، وهو مثلها جزء لا يتجزأ من الحياة . اما ماذا يحدث للواعية المنفصلة في النهاية فمسألة لا نتظر من عالم النفس ان يجيب فيها . ومهما يكن الموقع النظري الذي قد يتخذه ، فقد يعتمد يائساً الى تخطي الحواجز التي أقامها العلم . وهو لا يستطيع الا أن يشير الى ان النظرات التي اشتمل عليها النص من حيث لا زمانية الواعية المنفصلة هي نظرات تنسجم مع الفكر الديني في جميع الأزمنة ، ومع فكر الأغلبية العظمى من البشرية . وأياً شخص يفكر بخلاف ذلك ، فإنما يقف

تقوم فلسفة اليوغا الصينية على أساس ان هذا الاستعداد الفطري للموت اثما هو غاية ، وبما ان هذه الغاية تشبه غاية النصف الأول من العمر ، اعني الولادة والتناسل ، وهما الوسيطان لإدامة الحياة الفيزيائية ، تتخذ هذه الفلسفة من الولادة الرمزية لجسد روحي نفسي (الجسد اللطيف) هدفاً للوجود الروحي ، وهو الجسد الذي يضمن بقاء الواعية المنفصلة واستمرارها . هذا الجسد الروحي اثما هو الإنسان الروحي الذي يعرفه الاوروبي منذ القديم ، ويعمل على إنجابه بواسطة ممارسات سحرية واعتقاد رموز مختلفة تماماً ، بواسطة الإيمان والمسلك المسيحي في الحياة . هنا أيضاً نقف على أساس يختلف اختلافاً تاماً عن الشرق . ثم ان النص يقرع في سمعنا شيئاً يخيّل البنا فيه انه غير بعيد جداً عن اخلاقيات الزهادة المسيحية ، لكن لا شيء أكثر خطأ من الافتراض أنه يعالج نفس الموضوع . فخلق النص الصيني ثقافتها عمرها آلاف السنين ، وهي ثقافة مبنية عضوياً فوق الغرائز البدائية التي لا تعرف - تبعاً لذلك - شيئاً عن الأخلاقيات الاستبدادية التي تنتهك الغرائز ، مما يعتبر علامة مميزة علينا باعتبارنا توتونيين برابرة لم ندخل المدنية الا حديثاً . لهذا السبب كان الصينيون مجردين من البواعث التي تحملهم على الكبت الشديد للغرائز الذي يسمم حياتنا الروحية ويبالغ في تسميمها الى حد المستيريا . ان من يعيش غرائزه يستطيع أن ينفصل عنها ، وعلى نفس النحو الطبيعي الذي يستطيع فيه أن يعيشها . كل فكرة عن قهر بطولي للنفس قد تكون غريبة كلياً عن معنى النص ، لكن هذا هو ما يراود منه لو اتبعنا التعليمات الصينية حرفياً .

يجب ألا نسي مقدماتنا التاريخية أبداً . منذ ألف سنة وثُفِّ ، أقال عثرتنا من أغلظ بدايات البرك ديانة شرقية كانت نامية الى درجة عالية ، وكنا حتى حينئذٍ من أنصاف الهمج ، فارتفعت بعقولنا الخيالية الى ذروة ما كانت لتتفق مع درجة نموّنا الروحي . ولكي نحافظ على هذه الدروة بطريقة أو بأخرى ، لم يكن أمامنا بدّ من كبت الحيز الغريزي الى حد كبير . وبذلك اتخذت الأخلاقيات والممارسات الدينية صفة تميّزت بالعتب الشديد الذي كاد ان يصبح خبيثاً . طبعاً ، ان العناصر المكبوتة لا تنمو ، بل تظلم حياة في الخافية على بربريتها الأولى . نريد الارتقاء الى ذرى ديانة فلسفية لكننا عاجزون عن ذلك . ان اقصى ما نستطيع أن نأمل به هو الارتفاع الى مستواها . ان جرح (امفورطاس) وانشطار (فاوست) لم يُشف منها الإنسان الجرمانى حتى الآن ؛ فخاذه ما زالت مثقلة بتلك المحتويات التي يجب أن تصبح أمراً شعورياً أولاً قبل أن يتمكن من تحرير نفسه منها . تسلمت مؤخراً رسالة من مريضة سابقة تصف التغيير الضروري بكلمات بسيطة لكن في محلها . كتبت تقول : «من الشر جاءني خير كثير . ببقائي هادئة ، لا أكبت شيئاً ، وأظل متيقظة متنبهة ، وبتقبلي للواقع - بأخذ الأشياء كما هي ، لا كما اريد لها أن تكون - بفعل كل هذا ، جاءتني معرفة غير عادية ، وقوى غير عادية أيضاً ، ما كنت لأحلم بها قط من قبل . كنت دائماً أظن اننا بقبونا . للأشياء فلننا تغلينا بطريقة أو بأخرى . لكن ثبت أن هذا غير صحيح أبداً ، و١١ ليس كالقبول بها ما يمكننا من اتخاذ موقف ازاءها^(١) . لذلك اعتزم الآن أن العب لعبة الحياة ، لأنني أصبحت قادرة على تقبل كل ما يحدث لي من خير وشر ، وشمس وظل يتعاقبان أبداً . وبهذه الطريقة نقبل أيضاً طبيعتنا الخاصة بجوانبها الإيجابية السلبية . وبذا يصبح كل شيء أكثر حياة بالنسبة إلي . كم كنت محمّاء ! كم حاولت أن أقسر كل شيء على السير وفق ما كنت أظن أنه يجب أن يكون !

(١) - انحلال. المشارة الصوفية .

وليس الا على أساس من مثل هذا الموقف ، الذي لا ينكر شيئاً من القيم التي اكتسبناها في مجرى التطور المسيحي ، بل على العكس يحاول بالمحبة والسماحة المسيحيين أن يقبل حتى أوضاع الأشياء في أنفسنا ، ما يتيح لنا الوصول الى مستوى أعلى من الوعي والثقافة . هذا الموقف هو موقف ديني بالمعنى الأصح ، وبالتالى شفاثي ، لأن جميع الأديان تشفي من الأحزان ومن أمراض الروح . ان تزايد نمو العقل الغربي وإرادته أعطانا ما يكاد أن يكون قوة شيطانية على محاكاة مثل هذا الموقف ، بنجاح ظاهر ، بالرغم من احتجاجات الخافية . غير أن المسألة ما هي الا مسألة وقت حتى يجبرنا الوضع المضاد على الاعتراف به بطريقة أو بأخرى . ان محاكاة موقف تنتج دائماً وضعاً غير مستقر ، يمكن أن تقلبه الخافية في كل وقت ، واننا لن نجد أساساً صحيحاً الا اذا أولينا المقدمات الغريزية الموجودة في الخافية نفس الاعتبار الذي نوليه وجهات النظر العقلية الواعية . لا شك ان هذه الضرورة من إعطاء الاعتبار للخافية يتعارض تعارضاً شديداً مع عبادة الغرب للواعية ولا سيما الغرب البروتستانتى . ومع ذلك ، وإن كان الجديد يبدو دائماً عدو القديم ، فكل من يرغب في فهم يزيد على الفهم السطحي لا يسعه الا أن يتبين انه بدون أن نطبق القيم المسيحية التي اكتسبناها تطبيقاً أكثر جدية ، لا يمكن أن يحدث التكامل الجديد .



الإتمام

ان زيادة معرفتنا بالشرق الروحي يجب الا تكون بالنسبة لنا غير تعبير رمزي عن إقامتنا لعلاقة مع العناصر الموجودة في أنفسنا وما زالت غريبة عنا . ان نكران مقدماتنا التاريخية حماقة بالغة وهو خبر الطرق التي تقودنا الى اقتلاعنا من جذورنا . وليس الا الوقوف بثبات على أرضنا الخاصة بنا ما يتيح لنا أن نتمثل روح الشرق .

يقول شيخ قديم في وصف الناس الذين لا يدرون أين تقع منابع القوى الخبيثة : «الناس الدنيويون يُضَيِّعون الجذور ويتعلقون بأعالي الشجر» . ان روح الشرق طلعت من الأرض الصفراء ، وتستطيع روحنا ، بل يجب عليها ، الا تطلع الا من أرضنا . واني ، لهذا السبب ، أتناول هذه المشاكل بطريقة كثيراً ما كانت موضع انتقاد بأنها «سيكولوجيزم» (= رد كل شيء الى علم النفس والمبالغة في ذلك) . فإن كان المراد بذلك «علم النفس» فإنه إطراء لي ، لأن قصدي هو حقاً أن اطرح بلا رحمة جميع الدعاوى الميتافيزيقية لكل تعليم باطني ، الغرض الخفي لاكتساب القوة من خلال الكلمات لا يتفق مع جهلنا العميق - الذي يجب أن نتحل بالتواضع لكي نقرّ به . وإن قصدي الثابت هو أن آتي بالأشياء التي لها رنين ميتافيزيقي الى وضع النار من الفهم السيكولوجي ، وأن أبذل كل جهد لمنع العامة

من الإيمان بكلمات القوة الغامضة . ليؤمن المسيحي المقتنع لأن هذا الإيمان هو واجبه الذي أخذه على عاتقه . أما غير المسيحي فقد خسر نعمة الإيمان (ربما كان ملعوناً منذ الولادة من حيث عدم قدرته على الإيمان ، بل على المعرفة فقط) . لذلك ليس من حقه أن يضع إيمانه في مكان آخر . ليس يسع الإنسان أن يفهم الأشياء ميتافيزيقياً ، لكنه يستطيع أن يفهمها سيكولوجياً . لذلك انزع عن الأشياء غطاءها الميتافيزيقي ، لكي أجعل منها موضوعات من السيكولوجيا . بهذه الطريقة أستطيع على الأقل أن استخلص شيئاً مفهوماً منها ، وأن أفيد نفسي منها . زد على ذلك اني أعلم نفسي على معرفة الأحوال والشروط والسياقات السيكولوجية التي كانت من قبل محجوبة وراء الرموز وفوق متناول فهمي . واني بعملي هذا أستطيع أيضاً أن اتبع طريقاً مماثلًا وأختبر خبرات مماثلة ، بحيث لو ظل عنصر ميتافيزيقي لا يمكن التعبير عنه ، لأتاحت له خير فرصة للكشف عن نفسه .

ان اعجابي بكبار فلاسفة الشرق هو إعجاب أصيل بمقدار ما يتسم موقفهم من ميتافيزيقياتهم بعدم التوقير^(١) . وإنه ليخامرني ظن بأنهم علماء نفس رمزيون ، ليس أفدح من الضرر الذي تنزله بهم من أن نفهمهم حرفياً . فلو كان ما يريدونه هو ميتافيزيقيات حقاً . لكانت محاولة فهمهم أمراً لا جدوى منه ، لكن إن كان ما يريدونه هو علم نفس ، فإننا لا نستطيع أن نفهمهم وحسب ، وإنما نستطيع أن أن نجني منهم فوائد جمة ، لأن ما يُسمى «ميتافيزيقا» يدخل عندئذ في نطاق الخبرة . فلو سلمت بأن إلهاً ما يتصف بالإطلاق ويعلو على كل خبرة بشرية ، لغادرتني بارداً . لا أؤثر فيه ولا يؤثر في . لكن لو علمت بأن الإله باعث شديد القوة في نفسي ، لبادرت فوراً الى الاهتمام به ، لانه يستطيع أن يصبح أمراً هاماً عندئذ ، حتى ولو كان هذا لا يبعث على سرور ، بل حتى ولو كان هذا بطرائق عملية ، قد تبدو مبتذلة الى حد نحيف - شأن كل شيء يرجع الى نطاق الواقع .

(١) - فلاسفة الصين - خلافاً لدغماطيقتي الغرب - يرجع اليهم الفضل في مثل هذا الموقف ، لأنهم أيضاً سادة آلهتهم . (ر . و) .

ان التقريع بـ «السيكولوجيزم» لا ينطبق الا على أحق يظن أن روحه في جيبه ؛
والحق ان عدد هؤلاء الحمقى هو أكثر من اللازم ، لأننا بالرغم من معرفتنا استخدام
الكلمات الكبيرة عن «الروح» ، الا ان الانتقاص من قيمة الأشياء النفسية لم يزل من
سوابق الحكم الغربية النموذجية . فلو استخدمت مفهوم «العقدة النفسية المستقلة»
لسارع القارئ الى سابق الحكم قائلًا ، ما هي الا عقدة نفسية . كيف يمكننا أن
نتأكد ان الروح ما هي إلا ؟ أن الأمر ليبدو كما لو أننا لم نعرف ، أو أننا ننسى دائماً ،
ان كل شيء نشعر به هو صورة ، وان هذه الصورة هي نفس . ان من يظنون أن الله
يُنقص منه لو أننا فهمناه شيئاً يتحرك في النفس ، مثلما هو قوة محرّكة لها ، أي لو
فهمناه «عقدة مستقلة» - ان هؤلاء أنفسهم قد يخضعون لعواطف لا ضابط لها
ولحالات عصابية في العقل بحيث تؤول ارادتهم وكل فلسفة لهم الى اخفاق بانس .
هل كان على المعلم اكهارت ان يُتهم بالسيكولوجيزم عندما قال ، «يجب ان نلد الله
في الروح مرة بعد مرة» ؟ ليس لتهمة السيكولوجيزم من مبرر الا في حالة نموذج
العقل الذي ينكر طبيعة العقدة المستقلة ويعمل على تفسيرها بطريقة عقلية بما هي
حاصل أسباب مجهولة ، أي بما هي موجودة بغيرها ؛ لا بما هي موجودة بنفسها . ان
في هذا الرأي الأخير من الغطرسة مثل ما في التوكيد «الميتافيزيقي» ، الذي اذ
يتخطى الحدود البشرية ، ينسب الى ألوهة تقع خارج مجال خبرتنا إحداث حالاتنا
النفسية . «السيكو - لوجيزم» ليس الا نظيراً للانتهاك الميتافيزيقي ، الذي يتصف
بنفس الصبائية التي يتصف بها هذا الأخير . لذلك يبدو لي من المعقول جداً أن
أمنح النفس البشرية نفس المشروعية الممنوحة للعالم التجريبي ، وان أسلم بأن للأولى
مثل «واقعية» الأخير تماماً . النفس ، كما أراها ، هي عالم يشتمل على الأنية . ولعل
من السمك ما يعتقد انه ينطوي على البحر . يجب أن نتخلص من هذا الوهم العادي
ان كنا نريد أن ننظر في الإبانات الميتافيزيقية من منطلق علم النفس .

ان توكيداً ميتافيزيقياً من مثل فكرة «جسد الألماس» ، جسم النفس الذي لا
ينهدم وينمو في الزهرة الذهبية ، أو في فراغ الإنش المربع^(١) ؛ هذا الجسم ، مثله

(١) - صحيح أن في النص الصيني شيئاً من غموض فيما يتعلق بـ «استمرار الحياة» بعد الموت ، حيث =

كمثل كل شيء آخر ، هو رمز لحقيقة نفسية رائعة ، بما هي حقيقة موضوعية ، تظهر أولاً مُسْقَطة في صور ولَدتها خبرات الحياة العضوية ، أي ثمرة وجنين وولد وجَسَد حي ، وهكذا . هذه الحقيقة النفسية خبر ما نعبّر عنها بالقول : «انه لست انا الذي احيا ، بل هي التي تحياني . لكن الوهم المتعلق بالقوى الفائقة التي تتمتع بها الواعية تقودنا الى القول : «انني انا احيا» . فإذا أدى الاعتراف بالخافية الى تبديد هذا الوهم ، بدت الأولى شيئاً موضوعياً بما فيه الأتية ego . الموقف من الخافية اذن شبيه بشعور البدائي الذي يرى في وجود ابن له ضماناً لاستمرار الحياة . هذا الشعور

= لا يتضح منه ان كان المقصود به امتداداً لوجود فيزيائي . ان تعابير من مثل «أكسير الحياة» وما أشبه تعابير يكتنفها الغموض وتورث الضلال بالتالي . والحق ان الإضافات المتأخرة يتضح منها ان تعليمات اليوغا مفهومة أيضاً بالمعنى الفيزيائي الصرف . بالنسبة الى العقل البدائي ، هذا المزيج العجيب من الفيزيائي والروحي لا يبعث على القلق ، لأن الحياة والموت عنده ليس من الاضداد التي يتم بعضها بعضاً كما هو حالها عندنا . (ولعل ما يثير الاهتمام بهذا الصدد على وجه الخصوص ، بالإضافة الى المادة التكنولوجية المعروفة ، «اتصالات دوائر الإنقاذ» الانكليزية بهذه الأفكار القديمة) . على أننا نجد أيضاً نفس الغموض فيما يتعلق بالحياة بعد الموت في المسيحية الأولى حيث تعتمد على افتراضات مماثلة - أي على فكرة «جسد النفس» الحامل الأساسي للحياة . (ولعل نظرية جيلي Geley في الباراسيكولوجيا هي آخر إحياء لهذه الفكرة القديمة) . لكن ، عما اننا نجد في النص الصيني تحذيرات من استخدام هذه الفكرة على سبيل الشعوذة والخرافة ، مثلاً . تحذيرات من صنع الذهب ، نستطيع أن نلحّ واقفين ، بدون ان نتناقض مع معنى النص ، على المعنى الروحي لهذه التعليمات . في الأحوال التي تريد التعليمات احداثها ، يلعب الجسد الفيزيائي دوراً يتناقض باطراد ، لأن «جسد النفس» يحل محله (من هنا أهمية التنفس في رياضة اليوغا بعامه) . «جسد النفس ليس شأنًا روحيًا» بالمعنى الذي نفهمه . ان ما تميز به الانسان الغربي أنه شطر الجانبين الفيزيائي والروحي من الحياة يفرض اكتساب المعرفة ، لكن هذين الضدين موجودان معاً في النفس ، ويجب على علم النفس أن يعترف بهذه الحقيقة . «النفس» يعني الفيزيائي والعقلي . والأفكار التي يشتمل عليها النص انما تتعامل مع هذا العالم المتوسط in-between الذي يبدو لنا مختلطاً غير واضح ، لأن مفهوم «الحقيقة النفسية» ليس شائعاً بيننا بعد ، بالرغم من أنه يحدد لنا مجال الحياة . بدون روح ، يكون العقل ميتاً كالمادة ، لأن كليهما مجردات مصطنعة ، على حين أن الإنسان أصلاً اعتبر العقل جسماً هوائياً ، والمادة لا تنقصها الروح .

التميز قد يتخذ له أشكالاً غريبة ، أشبه شيء بحال الزنجي العجوز الذي صاح غاضباً من ابنه العاق : «هناك يقف بجسدي ، ولا يطيعني مع ذلك» !

إنها مسألة تغير يطرأ على الشعور الداخلي شبيه بالشعور الذي يجتثره أب يولد له ابن ، تغير نعرفه أيضاً من خلال شهادة القديس بولس : «لست أنا الذي (أحيا) ، بل المسيح يحيا فيّ» ، إن رمز «المسيح» بما هو «ابن الإنسان» هو خبرة نفسية مشابهة : كائن روحي أعلى في هيئة بشرية يولد ولادة غير مرئية في الإنسان ، جسد روحي ، يتيح لنا مسكناً مستقبلياً ، جسد نرتديه - كما عبر عن ذلك بولس نفسه - كما نرتدي ثيابنا (لأن من تعمد منكم في المسيح يوجد مثلهم من اتخذ من المسيح رداءً) . واضح أنه من الصعب دائماً أن نعبر بصيغ العقل عن المشاعر اللطيفة ذات الأهمية البالغة لحياة الإنسان ورفاهيته . بمعنى ما ، الشيء الذي نحاول أن نعبر عنه هو شعور بأننا قد «استبدل بنا» ، لكن من دون أن «نُزحزح» عن موقعنا . إنه شعور كما لو أن اتجاه شؤون الحياة قد انتقل الى مركز غير مرئي . ولعل المجاز الذي استعمله نيتشه حرّ ، في أقصى عبودية الحب ، مناسب هنا . والخطاب الديني حافل بالخيال الذي يصور هذا الشعور من الاتكال الحر ، والسكينة والعبادة .

في هذه الخبرة الرائعة أرى ظاهرة هي أثر من انفصال الواعية ، فيها يصبح الذاتي (أنا احيا) شأنًا موضوعياً بالقول (يحياني) . ونشعر أن هذه الحالة أعلى من الحالة الأولى ، حقاً إنها كما لو كانت نوعاً من الإفلات من ربكة الاضطراب والمسؤولية المستحيلة التي هي نتيجة لا مناص منها من نتائج المشاركة الصوفية . هذا الشعور بالتححرر إنما يملأ بولس تماماً . إنه الشعور بكونه ابناً لله الذي يحرق الإنسان من سحر الدم . وهو أيضاً شعور بالمصالحة مع كل ما يحدث ، وهذا هو السبب ، على ما جاء في كتاب (هوي منع تشنغ) ، الذي يجعل من بلغ الإتمام يعود الى جمال الطبيعة .

في رمز المسيح البولباني (= نسبة الى القديس بولس) يتلاقى اعماق الخبرة الدينية في الغرب والشرق وجهاً لوجه : المسيح البطل المثقل بالأحزان ، والزهرة الذهبية التي تزهر في القاعة الأرجوانية من مدينة اليبس - ما أبعد المفارقة ، وما أشد

الاختلاف ، وما أعمق هوة التاريخ . انها لمشكلة جدية بأن تتوّج عمل عالم نفسي مستقبلي !

من المشاكل الدينية الكبرى في العصر الحاضر مشكلة لم تحظ الا بقليل من الانتباه ، مع انها المشكلة الرئيسية في هذا العصر ، وأعني بها مشكلة تقدم الروح الديني . ان كان علينا ان نبحثها ، فلا بد لنا من أن نشدد على الفرق بين الشرق والغرب في معالجتها - «الدرة» ، أو «الجوهر» ، أي الرمز المركزي . الغرب يشدد على التجسيد البشري ، بل وحتى على شخصية المسيح وتاريخيته ، بينما يقول الشرق : بلا بداية ولا نهاية ، بلا ماض ولا مستقبل^(١) . المسيحي ، طبقاً لمفهومه ، يخضع نفسه الى الشخص الإلهي الأعلى أملاً في نيل «نعمته» ، بينما الشرق يعرف أن الخلاص يتوقف على «العمل» الذي يُجرى المرء على نفسه . الطاو يطلع من الإنسان . اما محاكاة المسيح Imitatio Christi ففيها هذا المآخذ : في السياق الطويل نعد كمثل إلهي إنساناً جسد أعمق معاني الحياة ، ثم ننسى ، بفعل المحاكاة الصرفة ، ان نحقق أعمق معانيها - تحقيق الذات . في الحقيقة ، ليس بالأمر غير المريح إطلاقاً أن يتنكر المرء لمعناه الحقيقي . فلو أن يسوع فعل ذلك ، لربما صار نجاراً محترماً ، لا المتمرد الديني الذي قد يجري عليه اليوم ما قد جرى عليه في الماضي .

يمكننا ان نفهم محاكاة المسيح فهماً جيداً بطريقة أعمق . يمكننا أن نفهمها تحقيقاً لأعمق معتقداتنا ، التي هي أتم تعبير عن مزاج الإنسان ، بنفس الشجاعة ونفس التضحية بالذات التي أظهرها يسوع . لحسن الحظ - يجب أن نقول - ليس كل واحد مؤهلاً للقيام بمهمة قيادة البشرية ، وليس كل واحد مؤهلاً لأن يكون متمرداً ، ولذلك قد يكون ممكناً لكل واحد منا أن يحقق نفسه على طريقته الخاصة . ان هذا الإخلاص خليق بأن يصبح مثلاً أعلى حتى . بما أن البدع العظيمة تبدأ دائماً في الأمكنة التي لا تخطر على البال ، من ذلك مثلاً ان انساناً اليوم لا يكاد ينجل من غريه تماماً مثلاً كان

(١) - القسم الثامن من كتاب (هوي منغ تشنغ) .

ينجل منه من قبل ؛ ان هذه الحقيقة ربما تصبح بداية لتعرف الإنسان على نفسه كما هي . ثم يلي ذلك مباشرة تعرف مطّرد على أشياء كثيرة كانت فيما مضى من المحرمات الغليظة ، لأن حقيقة الأرض لن تظل محجوبة الى الأبد مثل «عذارى فيلندا» التي تكلم عنها تروتوليان* ، إن اماطة اللثام الاخلاقي ليس إلا خطوة واحدة الى الامام في نفس الاتجاه ، ثم هو ذا انسان يقف كما هو ، ويعترف لنفسه بأنه هو كما هو . فإذا فعل ذلك بطريقة لا معنى لها كان أحق ، اما اذا عرف معنى ما يصنع فيمكنه الارتقاء الى مقام أعلى من الإنسان الذي يحقق الرمز المسيحي ، بصرف النظر عن الآلام . غالباً ما نلاحظ أن المحرمات الحسية كلياً أو الطقوس السحرية في مرحلة أولى من ديانة ما تصبح في المرحلة التالية مسألة شأن نفسي ، أو حتى مسألة رموز روحية كلياً . وبمرور الأيام ، يصبح القانون الخارجي قناعة داخلية . وبذلك قد يحدث لإنسان معاصر ، وخاصة ان كان بروتستانتياً ، أن يصبح شخص يسوع ، الذي ظل حتى حيثل خارج نطاق التاريخ ، الإنسان الأعلى في داخل نفسه . عندئذ نكون قد بلغنا ، بطريقة اوروية ، الحالة السيكلوجية التي تنطبق على «الاستنارة» بالمعنى الشرقي .

كل هذا خطوة في تطوير واعية بشرية أعلى على طريق يفضي بنا الى اهداف نجهلها ، لكنه ليس ميتافيزيقيا بالمعنى العادي . حتى الآن انه ليس إلا «سيكلوجيا» ، لكنه حتى الآن أيضاً سيكلوجيا يمكن اختبارها ، وقابلة للفهم - وبفضل الله - حقيقة . هذه حقيقة يمكننا صنع شيء بها ، حقيقة تحتوي على امكانيات ، وهي - بالتالي - حقيقة حسية ، ان اقتصاري على ما يمكن اختباره سيكلوجياً ، ونبد ما هو ميتافيزيقي ، ليس معناه ، كما يمكن لكل ذي بصيرة أن يفهم ، انه إيماء الى ريبية او لا أدريّة تجاه الإيمان أو الثقة بقوى عليا . ان ما أقوله هو تقريباً نفس الشيء الذي رمى اليه كانط ، وهو في صدد «الشيء في ذاته» عندما أسماه «مفهوم الحد السلبي ليس إلا Grenzbegriff يجب الابتعاد عن كل إيانة عن

(*) أحد آباء الكنيسة في عصور المسيحية الأولى ممن دافعوا عنها بحماس - المترجم -

المتعالي لأنها دائماً ليست غير فرضية مضحكة من جانب العقل البشري الذي لا يعرف حدوده . لذلك ، عندما نستخدم على أن الله ، أو الطاو ، هو دفع من الروح ، أو حالة من الروح ، فهذا يعني أن شيئاً ما يقال عن المعلوم فقط ، ولا شيء عن المجهول الذي لا يمكن تعيينه .



خاتمة

كان الغرض من هذا الشرح محاولة إقامة جسر من التفاهم السيكلولوجي بين الشرق والغرب . فالاساس في كل فهم حقيقي هو الإنسان ، ولذلك كان علي أن أتكلم على أشياء بشرية . وهو عذري عن اقتصاري على معالجة المظاهر العامة فقط ، وعن عدم دخولي في تفصيلات تقانية . الوجهة التقانية ذات قيمة لمن يعرفون ، مثلاً ، ما هي ماكينة التصوير أو ما هو المحرك الانفجاري ، لكنها غير ذات جدوى لمن ليس عنده فكرة عن هذه الأجهزة . فالإنسان الغربي الذي أكتب له هو في وضع مشابه . لذلك بدا لي أن أهم شيء أن أشدد على التوافق بين الحالات النفسية ورموز الشرق والغرب بواسطة هذه المشابهات نفتح مدخلاً إلى الحجرات الجوانية من العقل الشرقي ، وهو مدخل لا يتطلب التضحية بطبيعتنا ، ومن هنا لا يتهددنا باقتلاعنا من جذورنا . لا ، ولا هو منظار فلكي (تلسكوب) أو مجهر كيباوي (ميكروسكوب) يتيح لنا نظرة لا تعيننا بصفة أساسية لأنها لا علاقة لها بنا . وإنما هو جوف من المعاناة والسعي والمجاهدة شائع بين جميع الشعوب المتقدمة ؛ وهو الخبرة الماثلة التي يصير فيها الإنسان واعياً ، خبرة فرضتها الطبيعة على البشرية ، وتوحد أكثر الثقافات اختلافاً في مهمة واحدة .

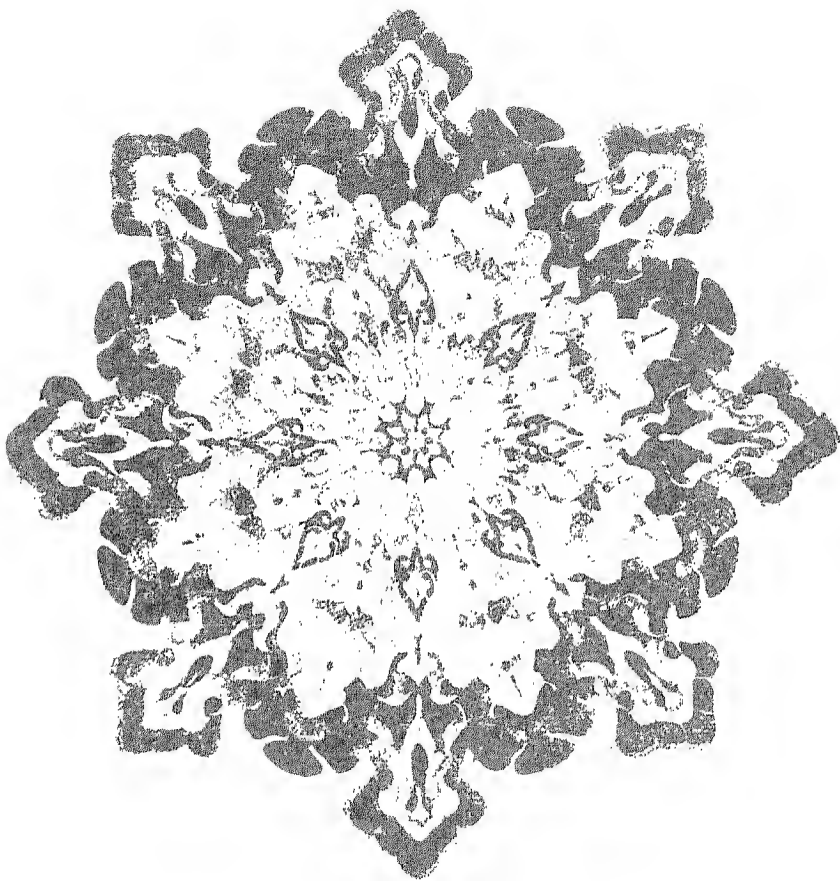
الواعية الغربية ليست بالواعية عموماً ؛ انها عامل مقيد تاريخياً ومحدود جغرافياً ، ولا تمثل غير جانب واحد من إنسانية الإنسان . ان توسيع واعيتنا يجب الا يمضي على حساب أنواع أخرى من الوعي ، بل يجب أن يحدث من خلال نمو العناصر النفسية التي تشبه عناصر النفس الغربية ، تماماً كما ان الشرق لا يستطيع الاستغناء عن تقائنتنا وعلومنا وصناعاتنا . ان الغزو الأوروبي للشرق كان عملاً من أعمال العنف على نطاق واسع ، وقد رتب علينا واجباً - التزاماً نبيلاً - هو أن نفهم العقل الشرقي . وربما كان هذا أكثر ضرورة مما ندركه في الوقت الحاضر .

أمثلة على المناادل الأوروبية

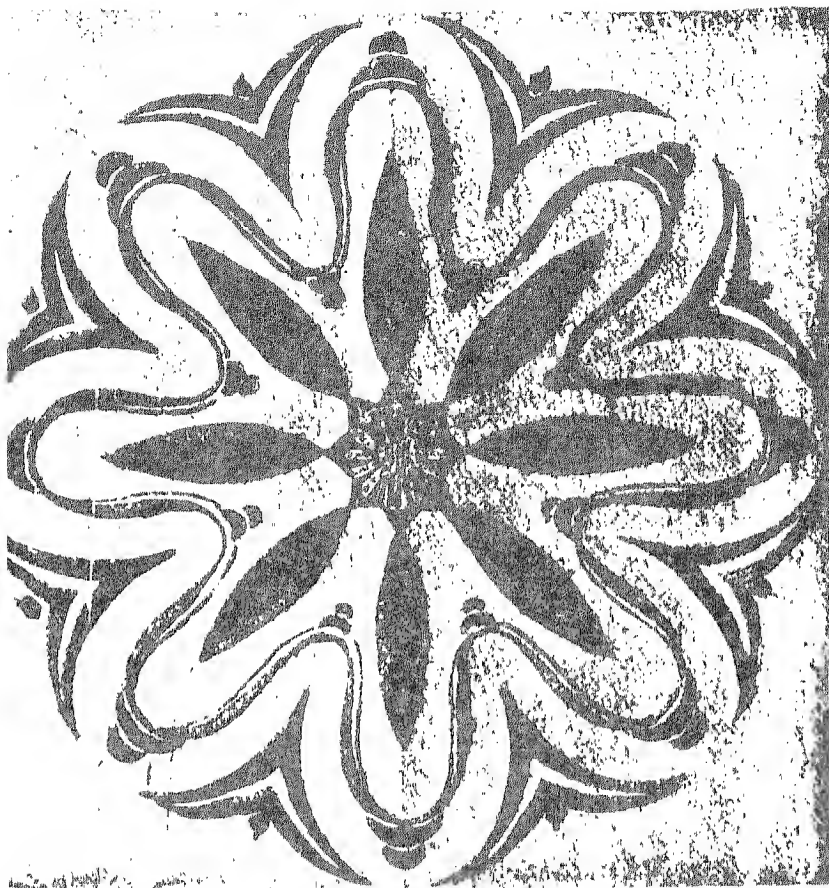
رسم الصورتين بين الصفحات * و مريضان على نحو ما هو موصوف في النص الصيني . ترجع الأولى منها الى ١٩١٦ . اما مبداسيات (الأي تشنغ) في الصورة (٤) فجاءت من قراءة لترجمة Legge التي نشرت في سلسلة الكتب المقدسة الشرقية ، وقد رسمتها مريضة ذات ذُربة جامعية لما بدا لها فيها من معنى مخصوص لحياتها . لم أعرف مندلة اوروية (ولدي منها مجموعة لا بأس بها) تحقق من الانسجام والكمال المتفق عليهما تقليدياً ما تحققة المندلة الشرقية . وقد تخبّرت من المنادل الأوروبية عشرأ من نوعيات كثيرة ، ولا بدّ لها ، في مجموعها ، ان تبين لنا ببلاء التقابل بين الفلسفة الشرقية وسياقات الخافية في الغرب .

ك . غ . يونغ

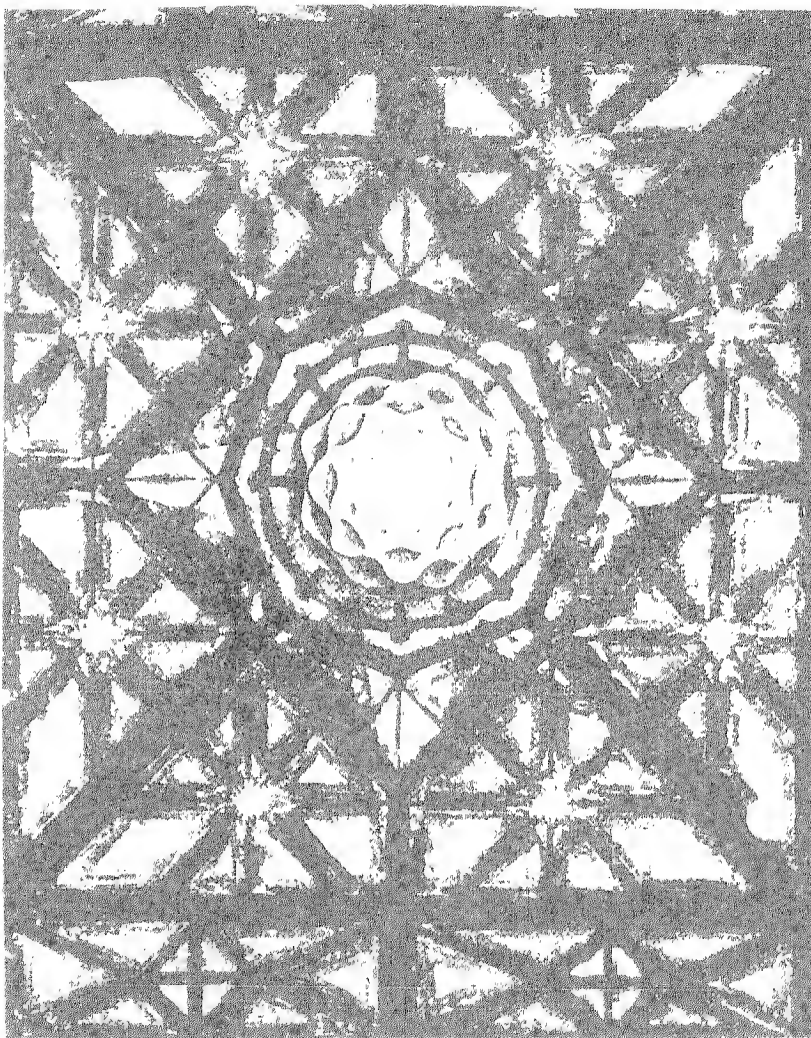
* في الاصل الانكليزي مليء الفراغ برقمي ١٣٦ و ١٣٧ ، وبما أن الإشارة الى صورتين فليس هناك الا صورة واحدة على الصفحة المرقومة بـ ١٣٧ - المترجم --



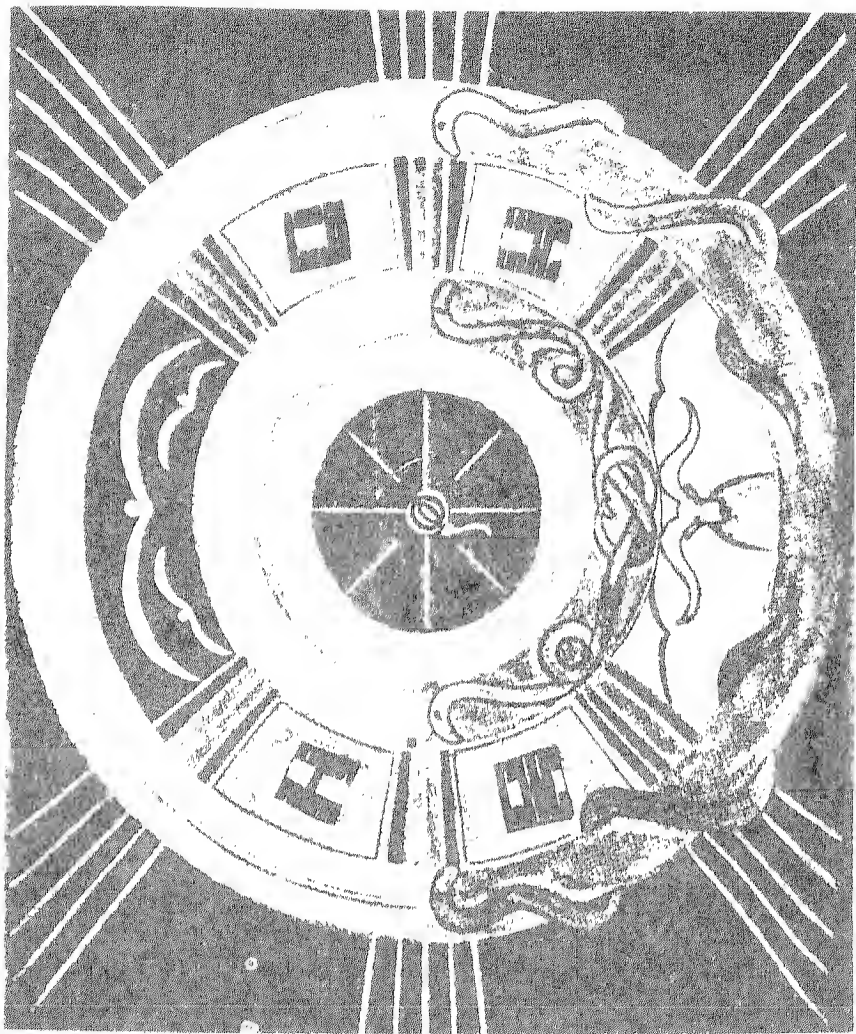
١ . الزهرة الذهبية متمثلة بما هي أروع من جميع الأزهار



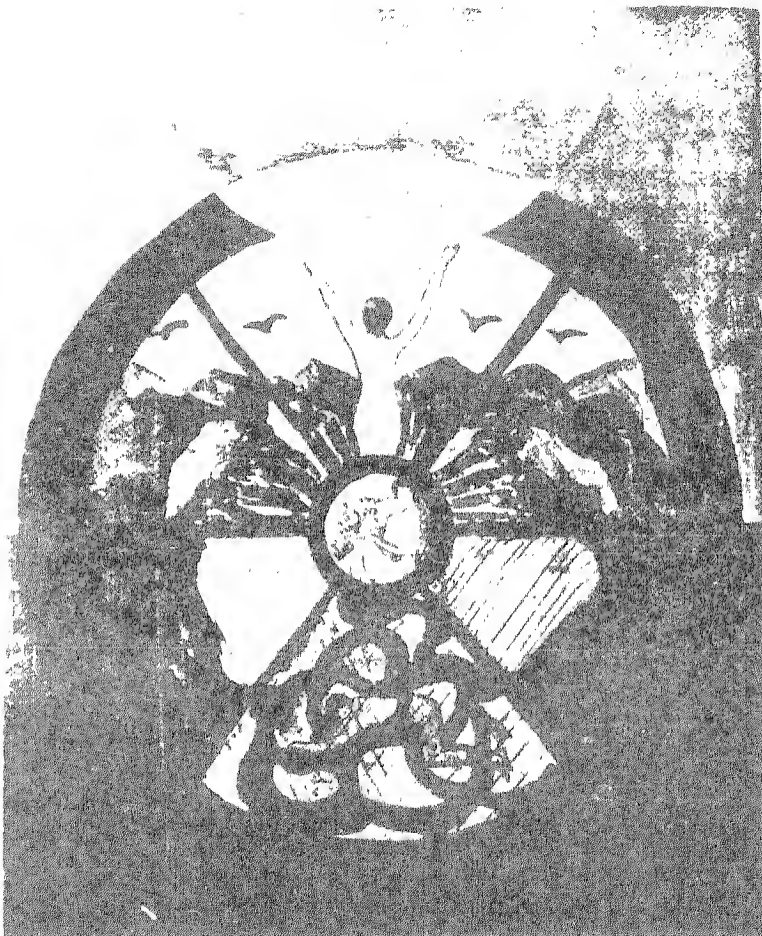
٢ . في المركز ، الزهرة الذهبية ، يشع منها الأسماك التي ترمز الى الخصوبة (تقابلها الصواغق في المنادى اللاموية)



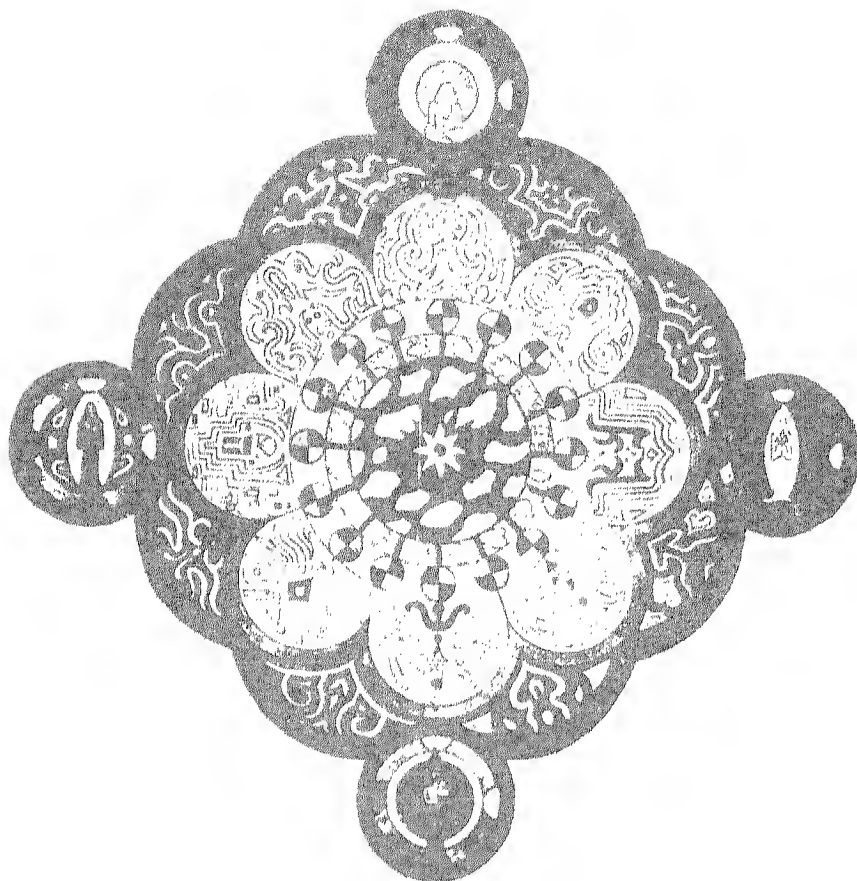
٣ من النواحي زهرية ذهبية ، ونجوم تلوح فيها وحول الزهرة جدران لها ثمانية أبواب . والرسم
بمجملة عبارة عن نافذة شفافة .



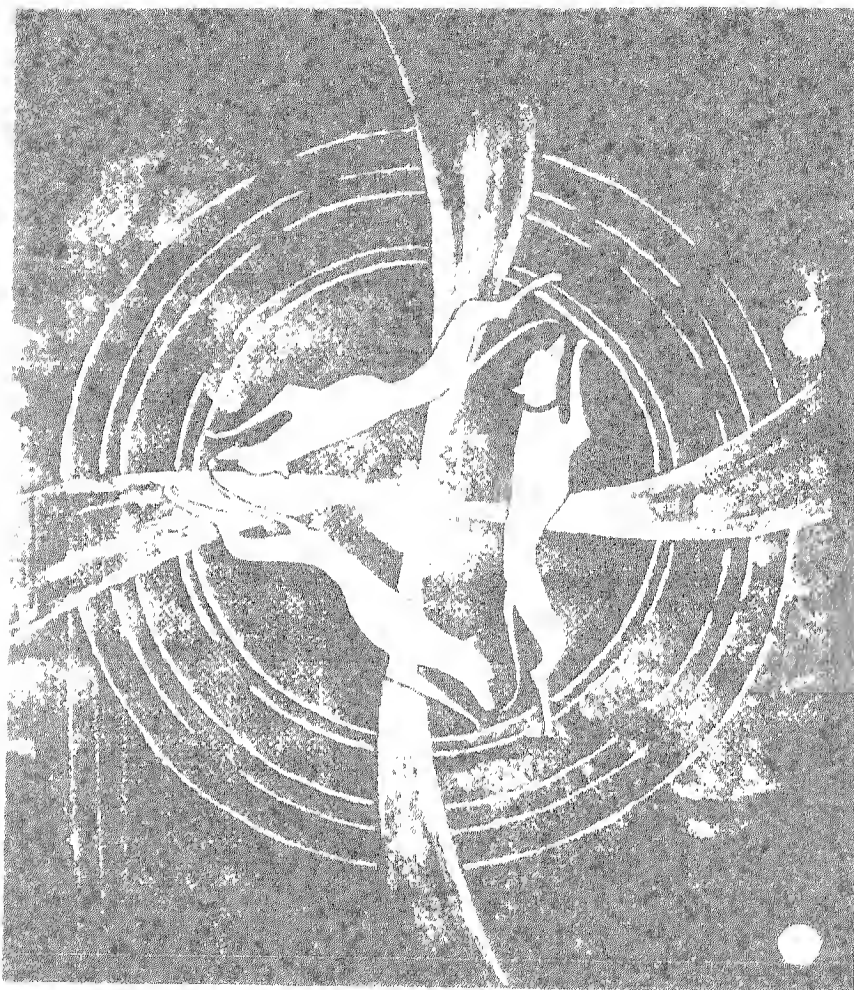
٤ . اتصال عالم الهواء وعالم الأرض - (الطيور والثعابين)
في الوسط رهرة ذات نجم ذهبي



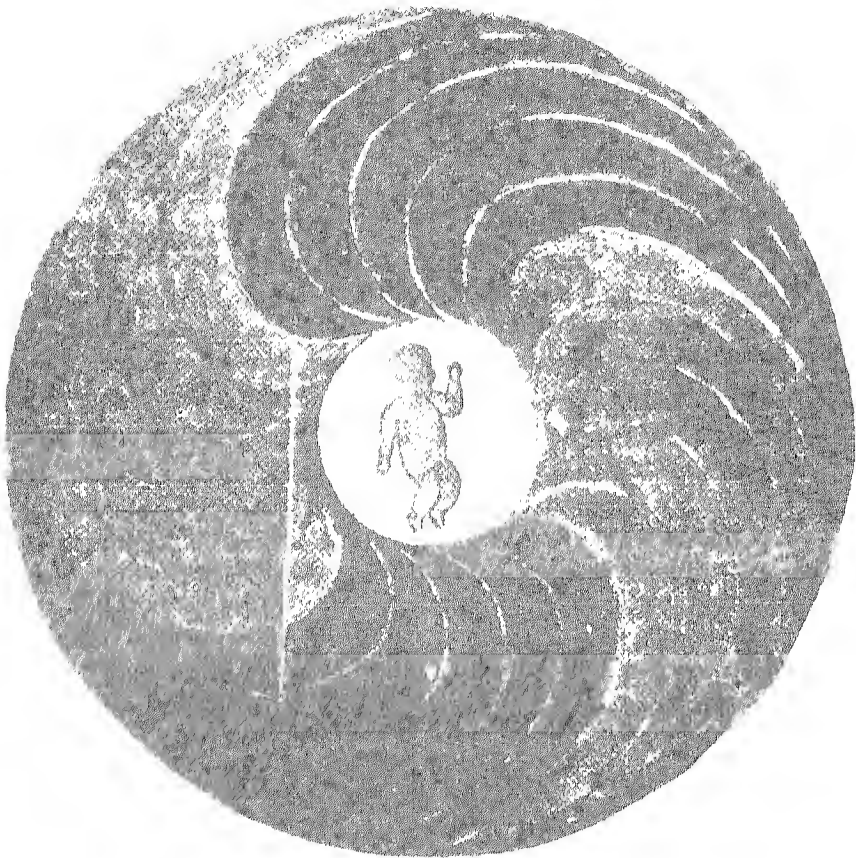
٥ . تفصال النور عن عالم الظلام ، الروح السماوي عن الروح الأرضي .
في الوسط رسم للتفكير



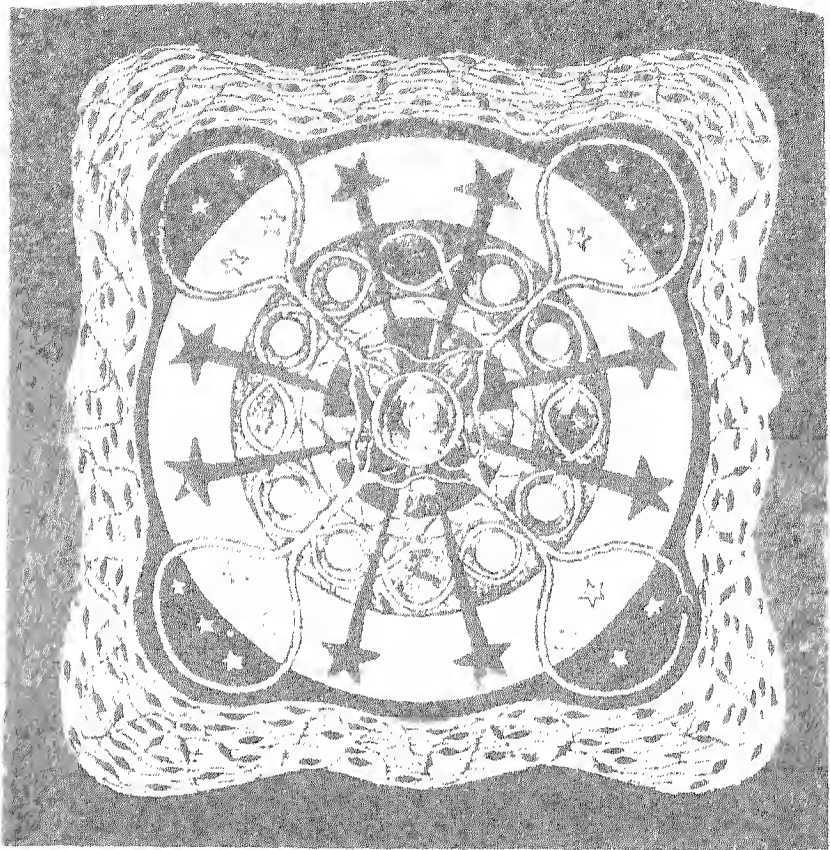
٦- هي الوسط ، السور الأبيض يشع في السماء ، هي الدائرة الأولى ، برز الحياة المروني بلاسيبي ، هي
 الإدارة ، المادية بالخونبة الدائرة التي تحتوي على الألوان الأولية الأربعة ، هي الثالثة والرابعة القوى
 المزدوجة التي تمثل بانتهاء الدائرة والخارج هي الجهات الأربعة ، الأربعة المراكز والشؤون ،
 كلاهما يمثلهم ثمانية إلى عدد مظهره



٧ - تصميم يمثّل الربيع في حركة دائرية



في هذا الشكل، هي الصورة الجغرافية والالوان الاربعة الاولى واسمها في الحركة الدائرية .



٩. في الوسط ، الطوروسية الجبروتية وفيها شكل يمثل انساناً يهبط بأوعية دودية دالة أصل الكون بدور حول المركز الذي يجذب ما يبعث منه ، حول الشمس الخارجية فتدب سبع
 نجوم إلى أن المساقو شرقي هي المقبرة السبعية



١٠ - صورة من كتاب "الرياضة البدنية" من تأليف الدكتور محمد عبد الحليم
الرياضة البدنية هي الرياضة التي تهدف إلى تحسين اللياقة البدنية
والتحمل من خلال ممارسة التمارين الرياضية المختلفة.

ملحق في ذكرى ريتشارد ويلهلم^(١)

ليس الكلام عن ريتشارد ويلهلم عن عمله بالمهمة اليسيرة ، لأن طريقنا ، رغم أن كلاً منهما قد بدأ بعيداً جداً عن الآخر ، تقاطعتا كما تتقاطع المذنبات . لقد كان لعمله الحياتي مجالاً ما أتيج لي أن أحيط به . لا ، ولا شاهدت تلك الصين التي صاغته في أول أمره ثم مضت من بعد في الاستحواذ عليه فكراً وشعوراً ؛ زيادة على ذلك اني لا أعرف لغتها ، وهي التعبير الروحي الحي عن الشرق الصيني . والحق اني لأقف كما يقف الغريب خارج اقليم واسع من المعرفة والخبرة عمل فيها ويلهلم كما يعمل المعلم في حرفته . فهو العالم بالصينيات ، وأنا الطبيب ، ما كنا لنتقي لو بقي كل منا في نطاق اختصاصه . ولكتنا التقينا في حقل من العلم الإنساني يبدأ خارج حدود المناصب الأكاديمية . هناك تقع نقطة التقائنا ؛ وهناك انطلقت الشرارة التي أضاءت المصباح الذي كان مقدراً له أن يصبح بالنسبة لي من أعظم الأحداث الحافلة بالمعاني في حياتي . بسبب هذه الخيرة يمكنني أن أتكلم عن ويلهلم وعن عمله ، وأنا أفكر الآن باحترام وامتنان لهذا العقل الذي شيد جسراً بين الشرق

(١) - التي هذا الخطاب التذكاري في ميونيخ في ١٠ ايار (مايو) من عام ١٩٣٠ . لكنه لم ينشر مع «سر الزهرة الذهبية» باللغة الألمانية الا في الطبعة الخامسة في عام ١٩٥٧ . (ك . ف . ب) .

والغرب ، وأعطى الغرب ذلك الإرث الثمين لثقافة عمرها آلاف السنين ، ثقافة ربما كان محكوماً عليها بالتواري .

أمتلك ويلهلم من الإحاطة ما لا يمتلكه الا من تجاوز حدود اختصاصه ، ولذلك أصبحت معرفته هماً يعني الإنسانية جمعاء ، أو انها كانت كذلك في البداية وبقيت كذلك دائماً . وإلا فأي شيء آخر كان خليقاً بأن يحمره من ضيق أفق الأوروبي والمبشر تحريراً تاماً ، ويجعله يضحي بسابق حكمه في سبيل هذه الدرة النادرة ؟ والحق انه لم يكذبوا وجه سر الروح الصيني حتى عرف فيه الكثر المخبأ لنا . لا بد الا ان يكون هناك حب عظيم يعمم البشرية كلها ، وعظمة قلب تؤله الكل ، اتاحت له أن يفتح بلا تحفظ على روح أجنبية بهذا العمق ، وأن يضع في خدمة هذا التأثير المواهب والمقدرات الكثيرة التي يمتلكها عقله . وعندي أن انكبابه على موضوعه بحد ذاته لشاهد على روح عظيمة لا نظير لها ، هذا الى تحطيه لكل ضغينة مسيحية وكل وقاحة اوروية ؛ ذلك ان العقول المتواضعة (= المتوسطة) ما ان تحتك بثقافة أجنبية حتى تفقد نفسها اما في انسلاخ أعمى عن جذورها ، أو فيها يساوي ذلك من جنوح للنقد يتصف بالوقاحة وعدم التفهم . وهم اذ لا يلامسون من هذه الثقافة الأجنبية غير سطحها ومظاهرها الخارجية ، لا يأكلون من خبزها ولا يشربون من نيلها ، وبذلك لا يدخلون في روحها العامة ، ويمحرون انفسهم من ذلك الامتزاج والانصهار الذي يهيء لولادة جديدة .

الأصل أن يكون عقل صاحب الاختصاص عقلاً مذكراً صرفاً ، عقلاً الخصوبة عنده سياق غريب وأمر غير طبيعي ، ولذلك يكون أداة رديئة التكيف خصوصاً من أجل استقبال روح أجنبية وتوليدها . أما العقل الكبير فيحمل خاتم الأنثى ، وهباً رهماً تستوعب وتثمر وتستطيع أن تشكل من جديد ما هو غريب في صورة مألوفة ، لقد امتلك ويلهلم الى اعل درجة تلك الهبة النادرة من الأمومة الروحية ، وهو مدين لها بقدرته التي لا تُضاهى حتى الآن على القيام بترجمات منقطعة النظير .

وعندي أن أعظم عمل قام به ترجمته لكتاب (آي - تشنغ) والشروح التي وضعها عليه . قبل أن يتاح لي التعرف على ترجمة ويلهلم ، ظللت سنوات اعتمد

ترجمة legge غير المكافئة ، ولذلك كنت في وضع يسمح لي بالتعرف على الفرق الكبير بين الترجمتين . لقد وُفق ويلهلم في بعث هذا العمل القديم ، في صورة حية جديدة ، وهو العمل الذي لا يرى فيه الكثير من العالمين بالصينيات ، لا بل الكثير من الصينيين الحديثين أيضاً ، غير مجموعة من المعادلات السحرية التافهة . ان هذا العمل ، كما لا يجسده عمل آخر ربما ، هو روح الثقافة الصينية ؛ ذلك أن خيرة العقول في الصين قد تعاونت عليه . وساهمت فيه على مدى آلاف السنين . لقد ظل يعيش ويعمل ، على الأقل من أجل الذين يفهمون معناه ، ولم تنل منه يد البلى بالرغم من عمره الخرافي . وأن نكون نحن أيضاً في جملة هذا الرهط المفضل فهذا ما ندين به الى الجهد المبدع الذي بذله ويلهلم . لقد جعل هذا الكتاب في متناولنا من خلال ترجمة دقيقة وخبرة شخصية اختبرها بوصفه تلميذاً لمعلم صيني من المدرسة القديمة ، ومريداً في سيكولوجية اليوغا الصينية كان عنده التطبيق العملي ل (آي - تشنغ) خبرة دائمة التجدد .

لكن ويلهلم ، الى كل هذه المواهب الغنيّة ، أثقل كاهلنا بمهمة لعلنا لا نستطيع في الوقت الحاضر غير تخمين ضخامتها ، ولكننا لا نستطيع أن نراها تماماً . كل من أسعده الحفظ ، كما أسعدني ، أن يختبر ، في تبادل روحي مع ويلهلم ، ما في (الآي تشنغ) من قدرة تنبؤية ، لا يستطيع أن يظل جاهلاً مدة طويلة بأننا انما نأثس هنا نقطة ارخيديدس التي قد يتقوض منها موقفنا العقلي الغربي من الأساس . ان تقدّم لنا ، كما فعل ويلهلم ، مثل هذه الصورة الشمولية الغنية الألوان من ثقافة أجنبية ، امر ليس بالخدمة الضئيلة . لكن ما هو أهم من ذلك بكثير انه نقل إلينا الجرثومة الحية للثقافة الصينية القادرة على إحداث تغيير جوهري في نظرتنا الى الحياة . لم يعد بإمكاننا ان نقف موقف المراقب المتعجب أو الناقد ، لأننا أصبحنا شركاء في الروح الشرقي الى الدرجة التي نجحنا فيها في اختبار القوة الفاعلة في (الآي تشنغ) .

تبدو الوظيفة التي يقوم عليها استخدام (الآي تشنغ) للوهلة الأولى متناقضة تناقضاً شديداً مع طريقتنا الغربية القائمة على التفكير السببي العلمي . بعبارة أخرى

، انها غير علمية الى أقصى حد ، لا بل هي من الأمور المحرمة ، وهي لذلك تقع خارج نطاق محاکمتنا العلمية ، لا بل هي غير مفهومة لها .

منذ بضع سنوات ، سألني رئيس الجمعية الانثروبولوجية البريطانية ، كيف استطيع أن أفسر أن شعباً كشعب الصين بلغ هذه المرتبة العالية من الفكر ولم يتبع علماً مع ذلك . أجبت أن قوله هذا ناشيء عن خداع بصري ، لأن الصينيين قد انتجوا «علماً» ، كان «عمله المقياس» هو (الأي تشنغ) . لكن مبدأ هذا العلم ، شأنه شأن كثير غيره في الصين ، يختلف كلياً عن مبدأ علمنا .

صحيح ان علم (الأي تشنغ) لا يقوم على مبدأ السببية ، بل على مبدأ (حتى الآن لم يُسمَّ لأننا لم نصادفه بيتنا) حاولت تجريبياً ان اسميه المبدأ السنكرونستي Synchronistic Principle . كان انصرافي الى سيكولوجية سياقات الخافية قد اضطرني منذ زمن بعيد الى البحث عن مبدأ تفسيري آخر ، لأن مبدأ السببية بدا لي قاصراً عن تفسير ظاهرات معينة رائعة من الخافية . وقد وجدت ان هناك متوازيات لا يمكن ان تقوم فيما بينها علاقة سببية ، مما يقتضي أن تنهض على نوع آخر من العلاقة . وقد بدا لي ان هذه العلاقة تقوم بصفة رئيسية على تزامن نسبي للحوادث ، ولذلك كان التعبير «السِنْكَروُنْسْتِيَّة» Synchronicity . بل بدا لي كما لو أن الزمان ، من دون أن يكون تجريداً ، استمرارية حسية تحتوي على صفات أو شروط أساسية تتجلى في وقت واحد في أمكنة مختلفة بحيث لا يمكن تفسيرها بالتوازي السببي ، كما هو الحال ، على سبيل المثال ، في الظهور المتزامن لأفكار أو رموز أو حالات نفسية متماثلة . مثال آخر هو تزامن الحقب الطرازية في الصين وفي أوروبا ، وقد أشار ويلهلم الى هذه الحقيقة . ولعل علم التنجيم astrology مثال ممتاز على سنكرونستية جليلة لو كان تحت تصرفه لُقى جرى اختبارها على جميع الأوجه . لكن هناك - على الأقل - بعض الوقائع التي جرى اختبارها من كل وجه وأبديتها ثروة من الاحصاءات التي تجعل المشكلة الاسترولوجية جديرة بالبحث الفلسفي . (لا يجد علم النفس صعوبة في الاعتراف بالتنجيم لأنه كان يمثل ذروة المعرفة الفلسفية في العصور القديمة) .

ان يكون ممكناً رسم ملامح شخصية انسان لطريقة مكافئة استناداً الى المعطيات المتعلقة بولادته للدليل على ما في التنجيم من صحة نسبية . غير أن معطيات الولادة لا تتوقف أبداً على النجوم الثوابت ، بل على نظام توقيت استبدادي صرفاً ، ذلك بسبب تقدم أحد الاعتدالين (الريبيعي والخريفي) على الآخر كانت نقطة الربيع منذ القديم تتجاوز نقطة الصفر من برج الحمل . بمقدار ما نجد تشخيصات استرولوجية (تنجيمية) صحيحة ، فإن صحتها لا ترجع الى تأثير الأفلاك بل الى الصفات الزمنية التي افترضناها . بعبارة اخرى ، كل ولادة أو عمل في لحظة ما فإنما يتصف بصفات هذه اللحظة .

هذه هي أيضاً المعادلة الأساسية التي يقوم عليها استعمال (الأي تشنغ) . وانا لنكتسب المعرفة بالسداسي الذي يصف لحظة ما اذا اتبعنا طريقة الإمساك بعيدان حشيشة الحزنيل Yarrow أو بقطع من النقود ، وهي طريقة تتوقف على مجرد الحظ . وكما تكون اللحظة ، كذلك تتساقط عيدان الحشيشة . والسؤال الوحيد هو : هل استطاع الملك (وين) المعجوز وأمير (تشو) ، قبل المسيح بألف سنة ، أن يفسر الصورة الحادثة بتساقط عيدان الحشيشة تفسيراً صحيحاً ؟ فيما يتعلق بهذا ، لا شيء يمكنه أن يُنبئنا بذلك غير الخبرة .

في أول محاضرة له القاها في النادي السيكلوجي بزوريخ ، بين ويلهلم ، وكان ذلك بناء على طلب مني ، طريقة استشارة (الأي تشنغ) ، وفي نفس الوقت أجرى مطالعة Prognosis تحققت منها حرفياً وبوضوح لا يخطئ في أقل من ستين . هذه الحقيقة يمكننا أن نؤكدها بخبرات عديدة موازية . غير أنني لست معنيا هنا بإثبات صحة نبوءات (الأي تشنغ) موضوعياً ، بل أسلم بها كفرضية ، تماماً كما فعل ذلك صديقي الراحل - لذلك ، لن أبحث الا في الحقيقة المدهشة ، وهي ان «الصفات الخفية» قد أصبحت شيئاً مقروءاً بواسطة سداسي (الأي تشنغ) . اننا لا نتعامل بعلاقة الحوادث بالمقارنة مع علم التنجيم وحسب ، وإنما بما يرتبط منها ارتباطاً جوهرياً به . فلحظة الولادة تنطبق على العيدان المتساقطة ، والنجوم الثابتة على

السداسي ، والتفسير الاسترولوجي الناتج عن النجوم الثابت على النص الموضوع فوق السداسي .

ان منهج الفكر المبني على المبدأ السنكرونشي ، الذي بلغ ذروته في (الاي تشنغ) ، هو أنقى تعبير عن الفكر الصيني بعامة . اما في الغرب فقد غاب هذا الضرب من التفكير منذ زمن هيراقليط ، ولم يعد الى الظهور كصدى خافت الا عند لايبنتز . لكنه ، في غضون ذلك لم ينطفئ ، بل ظل حياً في غسق النظر الاسترولوجي ، ولم يزل الى اليوم عند هذا المستوى .

في هذه الحقبة من زماننا ، يلبي (الاي تشنغ) حاجة فينا الى مزيد من غموض فالعلوم الخفية Occultism تتمتع في ايامنا بانبعاث منقطع النظير ، حتى ليكاد نور العقل الغربي أن يعتمد به . لست أفكر الآن في مناصبتنا التدريسية ولا فيمن يمثلونها . فانا طيبب وأتعامل مع الناس العاديين ، ولذلك أعلم أن الجامعات لم تعد تعمل كإشارات للنور . لقد تعب الناس من التخصص العلمي . وياتوا يريدون أن يسمعوا من الحقائق ما يوسع آفاقهم ولا يضيقها ، حقائق لا تظلم بل تثير ، لا تغفل من أيديهم كما يفلت الماء ، بل تتغلغل فيهم حتى النخاع . هذا المسعى يهدد بأن يفضي بالجمهور الى سبل خاطئة ان لم تكن مجهولة .

حينما أفكر فيما أنجزه ويلهلم وفي أهميته ، أتذكر دائماً انكتيل دي بيرون ، ذلك الفرنسي الذي جاء الى اوروبا بأول ترجمة للأويانيشاد ، بعدما يقرب من ثمانية عشر قرناً من نشوء المسيحية ، في نفس الحقبة التي حدث فيها شيء ما سمعنا بمثله من قبل : إلهة العقل تخلع الإله المسيحي عن عرشه في نوتردام . واليوم ، عندما حدثت في روسيا أشياء أغرب مما حدثت في باريس ، عندما أخذ الرمز المسيحي في اوروبا يبيد من الضعف ما حدا البوذيين الى اعتبار هذه الفترة للحظة المناسبة لإرسال بعثات الى اوروبا ، إنه ويلهلم ، الممثل لروح اوروبا في حقيقة الأمر ، الذي يجيئنا من الشرق بنور جديد . لقد كانت هذه هي المهمة الثقافية التي شعر ويلهلم انه مدعو إليها . لقد أدرك كم يستطيع الشرق أن يُعطي من أجل شفائنا من بؤسنا الروحي .

اننا لا نساعد الفقير حين نتكرم عليه بالصدقات ، رغم ان هذه قد تكون هي رغبته . اننا نساعده بطريقة أفضل من ذلك بكثير لو أننا ببنا له كيف يستطيع أن يجر نفسه من فاقته بصفة دائمة . لسوء الحظ ، ان الشحاذين الروحيين في زماننا هم أشد ميلاً الى قبول صدقات الشرق نقداً ، أي الاستيلاء بلا تفكير على ممتلكات الشرق الروحية وتقليدها تقليداً أعمى . ذلك الخطر الذي يستحيل بشأنه الإفراط في اطلاق التحذيرات ، وهو الخطر الذي شعر به ويلهلم شعوراً قوياً . اننا لا نساعد اوروبا الروحية بمجرد احساس جديد أو دغدغة جديدة للأعصاب . ان ما اقتضى من الصين آلاف السنين لكي تشيده لا يمكننا ان نحصل عليه بالسرقة . يجب علينا ، بدلاً من ذلك ، أن نسعى لاكتسابه ثم امتلاكه . كل ما على الشرق أن يعطينا اياه هو أن يساعدنا على عمل يظل علينا ان نقوم به بأنفسنا . ماذا تفيدنا حكمة «الأويانشاده» أو نفاذ رؤية اليوغا الصينية اذا نحن تخلينا عن الأسس التي تنهض عليها ثقافتنا الخاصة بنا كما لو كانت أخطاء تجاوزتها الحياة ، ونزلنا كالقراصنة الذين لا وطن لهم على شواطئ أجنبية نحدونا نية السلب والنهب ؟ قبل كل شيء ، ان نفاذ رؤية الشرق ، وكذا حكمة (الأي تشنغ) ، لا معنى لها اذا نحن أغلقنا عقولنا عن مشاكلنا الخاصة ، وحجبنا انفسنا عن طبيعتنا البشرية الحقيقية بكل ما فيها من تيارات جوفية وظلمات حافلة بالأخطار . ان نور هذه الحكمة لا يضيء الا في الظلام ، لا في ضوء مصباح المسرح الاوروبي الوهاج من الوعي والإرادة . ان حكمة (الأي تشنغ) نشأت في الأصل من أرضية نستطيع أن نتلمس هولها في غموض لو قرأنا عن المذابح الصينية ، والسلطة الرهيبة التي تتمتع بها الجمعيات السرية الصينية ، والبؤس الذي يعجز الإنسان عن وصفه ، والقذارات والنقاوض المؤوس منها ، والجماهير الصينية .

نحن بحاجة لأن تكون لحياتنا ثلاثة ابعاد إن كنا نريد اختبار الحكمة الصينية اختباراً حياً . نحتاج أولاً الى الحقائق الأوروبية عن أنفسنا ، لأن طريقتنا يبدأ من الواقع الاوروبي لا من ممارسات اليوغا التي ربما لا تفعل شيئاً غير أن نتخدنا عن حقيقتنا . علينا أن نتابع ما بدأ به ويلهلم في الترجمة بمعنى أوسع ان كنا نريد أن نكون

تلاميذ جديرين بالمعلم . فكما ترجم ويلهلم كنز الشرق الروحي الى معنى اوروبي ، كذلك يجب علينا أن نترجم هذا المعنى الى حياة .

لقد ترجم ويلهلم المفهوم المركزي ، الطاو ، بـ «المعنى» ان ترجم المعنى الى حياة ، قد يكون ذلك من مهمة التلميذ . لكن الطاو لن يخلق أبداً بالكلمات او بالوصايا الحكيمة . هل نعرف بالضبط كيف ينمو الطاو فينا أو حولنا ؟ هل يتم هذا بالمحاكاة ، بالفكر ، بيهلوانيات الإرادة ؟ نشعور أن هذا كله لا يتكافأ الا بصورة مضحكة مع المهمة . لكن أين يجب علينا أن نبدا المهمة التالية ؟ هل تكون روح ويلهلم معنا أو فينا ان لم نحل هذه المشكلة بطريقة اوروبية - أي ، في الواقع ؟ أم يجب أن يبقى هذا ، في التحليل الأخير ، سؤالاً خطابياً يضع الجواب عنه في التصفيق ؟

لننظر الى الشرق : هناك قدر طاعٍ يحقق نفسه . المدفع الاوروبي فجر الأبواب الآسيوية ؛ العلم والتكنولوجيا الأوروبيان ، العلمانية الأوروبية والطمع الاوروبي ، كل ذلك قد غرق الصين . لقد غزونا الشرق سياسياً . لكن ، هل تعلمون ماذا حدث عندما قلبت روما الشرق الأدنى سياسياً ؟ لقد دخلت روح الشرق الى روما . لقد أصبح «ميثرا» إله الجيش الروماني ، ومن ابعد زوايا آسيا الصغرى احتمالاً جاء روجي جديد الى روما . ألا يستدعي ذلك أن نفكر في احتمال حدوث نفس الشيء اليوم ثم ما نلبث حتى نجد أنفسنا مصابين بنفس العمى الذي أصاب مثقفي روما الذين كانوا يندهشون من خرافات «الكرستوي» ؟ من الجدير بالملاحظة ان انكلترا وهولندا ، وهما اكبر دولتين تستعمران آسيا ، هما أيضاً أكثر الدول تأثراً بعدوى الشيوسوفية الهندوكية . اعلم ان خافيتنا حافلة بالرمزية الشرقية . ان روح الشرق على أبوابنا فعلاً . لذلك يدولي أن ترجمة المعنى الى حياة ، البحث عن الطاو ، قد أصبح ظاهرة عامة فينا بيننا ، والى مدى أبعد بكثير مما ندركه بعامة . كذلك يدولي أن من اهم علامات الأزمة أن يُطلب الى ويلهلم وإلى هاور Hauer ، (أحد علماء الهنديّات) ، ان يحاضرا في اليوغا في مؤتمر هذا العام الذي يعقده أطباء النفس الألمان . ليتبين ماذا يعني لطبيب ممارس يعالج مريضاً ،

وبالتالي متقبلاً ، أن يقيم صلة مع نظام شفائي شرقي ؟ معنى هذا أن روح الشرق تنفذ في جميع مَسَامِنَا وتصل الى أضعف الأمكنة من أوروبا . قد تكون هذه عدوى خطيرة ، لكنها قد تكون أيضاً دواء ناجعاً . ان اختلاط اللسان البابلية في الغرب قد خلق مثل هذا الضلال الذي جعل كلاً منا يتطلع الى حقائق بسيطة ، أو على الأقل الى أفكار عامة لا تخاطب الرأس وحده ، وإنما تخاطب القلب أيضاً ، حقائق تتيح الوضوح للعقل المتفكر والسلام للمشاعر التي ما تنفك تتعرض للضغط والتوتر . لقد عدنا اليوم ، مثل روما القديمة ، نستورد كل شكل من أشكال الخرافات الوافدة إلينا من الخارج لعلنا نجد فيها العلاج الذي يشفينا من أمراضنا .

تعرف الفطرة البشرية ان كل حقيقة عظيمة فهي بسيطة ، ولذلك يحسب الإنسان الضعيف الفطرة ان الحقيقة العظيمة موجودة في جميع التبسيطات والتفاهات الرخيصة . او هو يقع في الخطأ المضاد ، نتيجة للخيبة ، فيحسب ان الحقيقة العظيمة يجب أن تكون بالغة الغموض والتعقيد . اننا نشهد اليوم حركة غنوصية في الجماهير المغفلة الاسم تتطابق كل المطابقة من الناحية السيكلوجية مع الحركة الغنوصية التي قامت لتسعة عشر قرناً خَلَّتْ . في ذلك الزمان ، مثلما هو الحال اليوم ، قام جوابون مفردون من أمثال ابولونيوس الكبير بغزل الخيوط الروحية بدءاً من أوروبا رجوعاً الى آسيا ، وربما الى أقاصي الهند .

إذا نظرنا الى ويلهلم في هذا المنظور التاريخي ، لرأيناه متقنعاً قناع احد وسطاء الغنوصيين العظام الذين عقدوا الصلة بين تراث آسيا الوسطى الثقافي وبين الروح الهليني ، فكانوا سبباً في قيام عالم جديد على أنقاض امبراطورية روما . وفي ذلك الزمان ، مثلما هو الحال اليوم ، عمّ الفيضان قارة الروح ، ولم يترك غير قمم مفردة طالعة كالجزر من الطوفان الذي لا حدود له . وفي ذلك الزمان ، مثلما هو الحال اليوم ، كانت جميع الطرق الملتوية تشير الى العقل وتزدهر حطة الأنبياء المزيفين .

وسط هذا التنافر الصارخ في الرأي الأوروبي ، يكون من البركة فعلاً ان نستمتع الى لغة ويلهلم البسيطة ، الرسول القادم من الصين . من الواضح انها لغة

تدربت في مدرسة العقل الصيني الذي يشبه النبات في عفويته ، القادر على التعبير عن الأشياء العميقة بلغة واضحة ؛ تكشف النقاب عن شيء من بساطة الحقيقة العظيمة والمعنى العميق . لقد انغرس في تربة الغرب حبّة غضة . الزهرة الذهبية ، نهباً حذساً جديداً للحياة والمعنى ، يربحنا من توتر استبدادية الإرادة والغرور .

عندما واجه ويلهلم ثقافة الشرق الغربية ، ابدى لها درجة عالية من التواضع غير مُعتاد من اوروبي لقد تدانى منها تجربة ، بلا تغرض ولا ادعاء معرفة أفضل ؛ لقد انتفتح لها قلباً وعقلاً . ترك لها نفسه تستحوذ عليها وتشكلها ، حتى عندما رجع الى اوروبا جاءنا بصورة حقيقية للشرق ، لا بروحه وحسب وإنما بكيانه أيضاً . هذا التحول العميق لم يكتسبه قطعاً بدون تضحية عظيمة ، ذلك أن مقدماتنا التاريخية تختلف اختلافاً كلياً عن مقدمات الشرق . كان لا بد لحدة الواعية الغربية ومشكلاتها المتوهجة ان تلطف امام طبيعة الشرق الأكثر عالمية والأكثر رصانة ؛ وكان على العقلانية الغربية وتمايزها الأحادي أن تخضع امام رحابة الشرق وبساطته . بالنسبة لويلهلم ، لم يكن هذا التحول ليعني تحولاً في المنطق الفكري وحسب ، وإنما إعادة ترتيب أساسية للأجزاء التي تكون شخصيته أيضاً . ان الصورة التي أعطانا اياها عن الشرق ، وهي صورة خالصة كما هي في حقيقة الأمر من الغرض ومن كل أثر للاستبدادية ، ما كانت لتخلق بمثل هذا الكمال لو لم يكن قادراً على أن يدع الأوروبي في نفسه ينكفيء الى القاع . فلو انه اباح للشرق والغرب أن يصطرعا في داخله بخشونة لا تعرف هواده ، اذن لأخفق في مهمته الرامية الى تزويدنا بصورة صحيحة عن الصين . لقد كانت التضحية بالإنسان الاوروبي امراً لا فكاك له منه ، وأمرأ ضرورياً لإنجاز المهمة التي ألقاها القدر على عاتقه .

لقد أنجز ويلهلم مهمته بأعلى معنى للكلمة . فهو لم يضع في متناولنا كنوز العقل الصيني الغابرة وحسب ، وإنما - كما بينت - جاءنا حاملاً معه جذره الروحي أيضاً ، ذلك الجذر الذي ظلّ حياً كل هذه الآلاف من السنين ، وشتلته في تربة اوروبا . بإنجازه لهذه المهمة ، قد بلغت مهمته ذروتها ، ولسوء الحظ نهايتها أيضاً . وفقاً لقانون الانقلاب الضئلي ، الذي فهمه الصينيون بكل وضوح ، لقد طلع من

نهاية المرحلة الواحدة بدايةً ضدها . هكذا ينقلب (يانغ) ، في ذروته ، الى (ين) ، وما قد كان إيجابياً يصبح سلبياً . كان اقترابي من ويلهلم في السنوات الأخيرة فقط من حياته ، وقد استطعت يومئذ ان ألاحظ كيف أخذت أوروبا والإنسان الأوروبي يصطدمان في نفسه ويلقيان بثقلهما عليه ، وهو يكمل عمل حياته . وفي نفس الوقت ، كان ينمو في نفسه شعور ان بمقدوره الوقوف على حافة تحول كبير ، ثورة لم يستطع - والحق يقال - ان يفهم طبيعتها بجلاء . كان كل ما استطاع ان يعرفه انه كان يواجه أزمة حاسمة . لقد كان مرضه الجسماني يمشي جنباً الى جنب مع غموه الروحي . كانت احلامه تحفل بذكريات الصين ، لكن الصور التي كانت تطوف أمامه كانت دائماً صوراً حزينة وخفيفة ، وكان هذا دليلاً بئناً على أن المضامين الصينية قد أصبحت سلبية .

لا شيء يمكننا ان ننضحي به الى الأبد . كل شيء يعود فيما بعد في صورة مغايرة ، وحينئذ تحدث مثل هذه التضحية الكبيرة ، حين يعود الينا الشيء الذي ضحينا به ، يجب أن يلاقيه جسد صحيح قادر على المقاومة لكي يتلقى صدمة الثورة الكبيرة . لذلك ان أزمة روحية بهذه الأبعاد انما تعني الموت في كثير من الأحيان اذا حدثت في جسم امضاه المريض . عندئذ يكون السكين في يد الضحية ، والموت مطلوباً من المضحى .

كما ترون ، لم أتمسك بآرائي الشخصية ، لأنني لو لم أنبئكم كيف عرفت ويلهلم ، لم يكن بإمكانني ان اتكلم عنه بهذه الطريقة ؟ ان عمل حياة ويلهلم ذو قيمة عظيمة عندي لأنه فسر وثبت كثيراً مما كنت أسعى اليه وأجاهد من أجله ، فكرياً وعملاً ، لكي اواجه آلام أوروبا النفسية . لقد كان لي خبرة هائلة ان اسمع من خلاله ، في لغة واضحة ، عن الأشياء التي كانت تطلع ظلالاً معتمة من اختلاط الخافية الأوروبية . في الحقيقة ، أشعر بأنني قد ازددت به غنى كثيراً حتى ليبدولي الأمر كما لو أنني تلقيت منه أكثر مما تلقيته من كل إنسان آخر . وهذا أيضاً هو السبب الذي يجعلني لا أشعر بأنها جرأة مني ان كنت انا الذي من ينبغي أن يقدم على مذبح ذكره امتناننا واحترامنا جميعاً .

ك . غ . يونغ

الفهرس

ص	
٧	مقدمة الطبعة الانكليزية
١١	ملاحظة المترجم على الطبعة الجديدة المنقحة
١٣	مقدمة الطبعة الألمانية الثانية
١٧	مقدمة الطبعة الألمانية الخامسة
١٩	تعريف ريتشارد دويلهلم بالنص :
٢١	١ - أصل الكتاب
٢٨	٢ - المقدمات السيكلوجية والكوسمولوجية
٣٧	ترجمة كتاب طاي تشن هواتسونغ تشيه :
٣٩	١ - الواعية السماوية
٤٢	٢ - الروح الأولى والروح الواعي
٤٨	٣ - دوران النور وحماية المركز
٥٧	٤ - دوران النور وإيقاعية التنفس
٦٢	٥ - الأغلاط التي تقع في أثناء دوران النور
٦٥	٦ - خبرة الثبیت في أثناء دوران النور
٦٩	٧ - الطريقة الحية في دوران النور

٧١	٨ - تعويذة سحرية من أجل السفر الطويل
٨١	مجمّل المفاهيم الصينية التي تقوم عليها فكرة الزهرة الذهبية
٨٣	كتاب الوعي والحياة :
٨٥	١ - انقطاع الدفق إلى الخارج
٨٨	٢ - مراحل الدوران الست طبقاً للناموس
٩١	٣ - طريقان للطاقة
٩١	٤ - جنين الكاو
٩٢	٥ - مولد الثمرة
٩٣	٦ - بخصوص الاحتفاظ بالجسد المتحول
٩٤	٧ - الوجه الدائر إلى الحائط
٩٤	٨ - اللانهاية الفارغة
٩٧	شرح يونغ على كتاب سرّ الزهرة الذهبية
٩٩	المدخل :
٩٩	١ - صعوبات تواجه الأوروبي عندما يحاول أن يفهم الشرق
١٠٤	٢ - علم النفس الحديث يتيح إمكانية الفهم
١١٥	المفاهيم الأساسية :
١١٥	١ - الكاو
١١٧	٢ - الحركة الدائرية والمركز
١٢٥	ظواهر الطريق :
١٢٥	١ - تفكك الواعية
١٣١	٢ - الأنيم والأنيمة
١٣٩	انفصال الوعي عن الموضوع
١٤٥	الإتمام
١٥٣	خاتمة
١٥٤	أمثلة على المنازل الأوروبية
١٦٥	ملحق في ذكرى ريتشارد ويلهلم

